عصمة الأنبياء

تأليف

الإمام فخر الدين الرازي

٥٤٤ هـ - ٦٠٦ هـ

تقديم ومراجعة

محمد حجازي

الناشر

مكتبة الثقافة الدينية

١٤ ميدان العتبة القاهرة

ت ٩٢٢٦٢٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عصمة الأنبياء

تأليف

الإمام فخر الدين الرازي

٥٤٤ هـ - ٦٠٦ هـ

تقديم ومراجعة

محمد حجازي

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
١٤ ميدان العتبة القاهرة
ت ٩٢٢٦٢٠

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى

مكتبة الخانجى

ص . ب ١٣٧٥ القاهرة

الطبعة الأولى

١٤٠٦ هـ = ١٩٨٦ م

مطبعة المدني

المؤسسة السعودية بمصر

٦٨ شارع العباسية - القاهرة ت : ٨٢٧٨٥١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مقدّمة

الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

وبعد ، فهذه طبعة جديدة منقحة ومزيدة من كتاب « عصمة الأنبياء » لعلامة المعقول والمنقول إمام المتكلمين ونابغة المتأخرين العالم بحقائق المنطوق والمفهوم أصولا وفروعا الإمام « الفخر الرازى » ، وفقنا الله إلى مافيه الخير والثواب ...

اسمه ولقبه :

هو العلامة الكبير ، ذو الفنون ، فخر الدين أبو عبد الله محمد ابن الحسن بن الحسين القرشى التيمى البكرى الطبرى الأصل ، الرازى المولد ، أبو المعالى الفقيه الشافعى من ذرية أبى بكر الصديق .

كنيته :

أبو عبد الله ، أبو المعالى ، أبو الفضل ، ابن خطيب الرى وابن الخطيب .

مولده :

ولد الإمام فخر الدين الرازى فى خامس عشرى شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائه (٥٤٤ هـ - ١١٥٠ م) ، فى مدينة الرى وهى كورة من مشاهير بلاد الديلم ، قريبة من خراسان ، والنسبة إليها « رازى »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصفه :

كان عبل البدن ، ربع القامة ، كبير اللحية ، وكان فى صوته فخامة ، جهورى الصوت ، صاحب وقار وحشمة حاد الذهن ، حسن العبارة ، وكان يخطب ببلدة الرى وفى غيرها من البلاد ، ويتكلم على المنبر بأنواع من الحكمة .

نشأته وبيئته العلمية :

كان والده ضياء الدين عمر من كبار علماء الرى وخطيبها ، وقد تفقه واشتغل بعلم الخلاف والأصول حتى تميز كثيرا وصار قليل المثل ، وكان يدرس بالرى ويخطب فى أوقات معلومة هنالك ، ويجتمع عنده خلق كثير لحسن مايورده وبلاغته ، حتى اشتهر بذلك بين الخاص والعام فى تلك النواحى ، وله تصانيف عدة توجد فى الأصول وفى الوعظ وغير ذلك .

وخلف ضياء الدين ولدين أحدهما الامام فخر الدين ، والآخر وهو الأكبر سنا وكان يلقب بالركن ، وكان هذا الركن قد شدا شيئا من الخلاف والفقه والأصول ، إلا أنه كان أهوج ، كثير الاختلال ، فكان أبدا لايزال يسير خلف أخيه فخر الدين ، ويتوجه إليه فى أى بلد يقصده ، ويشفع عليه ، ويسفه المشتغلين بكتبه والناظرين فى أقواله .. وكان الإمام فخر الدين كلما بلغه شيء من ذلك صعب عليه ولم يؤثر أن أخاه بتلك الحالة ، وكان دائم الإحسان إليه . وقد اجتمع فخر الدين بالسلطان خوارزمشاه ، وأنهى إليه حال أخيه وما يقاسى منه ، والتمس منه أن يتركه فى بعض المواضع ويوصى عليه أنه لا يمكن من الخروج والانتقال

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن ذلك الموقع ، وأن يكون له مايقوم بكفايته وكل مايحتاج إليه ، فجعله السلطان فى بعض القلاع التى له ، وأطلق له إقطاعا يقوم له فى كل سنة بما مبلغه ألف دينار ، ولم يزل مقيما هنالك حتى قضى الله فى أمره .

وقد اشتغل فخر الدين على يد والده إلى أن مات ، فرحل إلى الكمال السمنانى واشتغل عليه ، ثم عاد الى الرى فاشتغل على المجد الجيلى – أحد تلامذة الإمام الغزالى – وقرأ علم الكلام والحكمة عليه لمدة طويلة ، وكان يحفظ « الشامل » فى علم الأصول لإمام الحرمين ، كما يحفظ « المستصفى » فى علم الأصول للإمام الغزالى ، وكتاب « المعتمد » لأبى الحسن البصرى المعتزلى ، وتفقه على الكمال السمنانى ولزمه مدة .

علمه ومجلسه :

قد كان فخر الدين الرازى فقيها ، أصوليا ، متكلما ، فيلسوفا ، طبيبا ومفسرا كبير الأذكياء والحكماء والمصنفين ، إمام وقته فى العلوم العقلية ، وأحد الأئمة فى العلوم الشرعية ، أفضل المتأخرين وسيد الحكماء المحدثين ، شاعت سيادته ، وانتشرت فى الآفاق مصنفاته وتلامذته ، وكان إذا ركب يمشى حوله ثلاثمائة تلميذ فقهاء وغيرهم ، وكان خوار زمشاه يأتى إلى بابه وإلى مجلس وعظه ، وكان الناس يقصدونه من البلاد ، ويهاجرون إليه من كل ناحية على اختلاف مطالبهم فى العلوم ، وتفننهم فيما يشتغلون به ، فكان كل منهم يجد عنده النهاية القصوى فيما يرومونه منه ، وكان علامة وقته فى كل العلوم ، وتميز حتى لم يوجد فى زمانه آخر يضاهيه ، وكان لمجلسه جلالة عظيمة ، وكان يتعاظم حتى على الملوك ، وكان مجلسه عظيما يحضره العام والخاص ، ويلحقه فيه حالٌ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ووجْد ، وإذا تكلم بذ القائلين ، وكان إذا جلس للتدريس يكون قريبا منه جماعة من تلاميذه الكبار ، مثل زين الدين الكشي والقطب المصرى وشهاب الدين النيسابورى ، ثم يليهم بقية التلاميذ وسائر الخلق على قدر مراتبهم ، فكان من يتكلم فى شيء من العلوم يباحثه أولئك التلاميذ الكبار ، فإن جرى بحث مشكل أو معنى شاركهم الشيخ فيما هم فيه ، وتكلم فى ذلك المعنى بما يفوق الوصف .

وكان ابن الخطيب شديد الحرص فى سائر العلوم الشرعية والحكمية جيد الفطرة ، حاد الذهن ، حسن العبارة ، كثير البراعة ، قوى النظر فى صناعة الطب ومباحثها ، عارفا بالأدب .

حدث شمس الدين محمد الوتار الموصلى قال : كنت ببلد هراة .. وقد قصدها الشيخ فخر الدين بن الخطيب من بلد باميان ، وهو فى أبهة عظيمه وحشم كثير . فلما ورد إليها تلقاه السلطان بها ، وهو حسين بن خرمين ، وأكرمه إكراما كثيرا ، ونصب له بعد ذلك منبرا وسجادة فى صدر الديوان من الجامع بها ليجلس فى ذلك الموضع ، ويكون له يوم مشهور يراه فيه سائر الناس ويسمعون كلامه ، وكنت فى ذلك اليوم حاضرا مع جملة الناس ، والشيخ فخر الدين فى صدر الإيوان ، وعن جانبيه يمنة ويسرة صفان من مماليكه الترك متكئين على السيوف وجاء فيه السلطان حسين بن خرمين صاحب هراة ، وأمره الشيخ بالجلوس قريبا منه ، وجاء إليه أيضا السلطان محمود ابن أخت شهاب الدين الغورى صاحب فيروزكوه فسلم وأشار إليه الشيخ بالجلوس فى موضع آخر قريبا منه من الناحية الأخرى . وتكلم الشيخ فى النفس بكلام عظيم وفصاحة بليغة ، قال وبينما نحن فى ذلك الوقت وإذا بحمامة فى دائرة الجامع ووراءها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صقر يكاد أن يقتنصها وهى تطير فى جوانبه إلى أن أعيت ، فدخلت الإيوان الذى فيه الشيخ ، ومرت طائرة بين الصفين إلى أن رمت بنفسها عنده ونجت ، فذكر لى شرف الدين بن عنين أنه عمل شعرا على البديهة ، ثم نهض لوقته واستأذنه فى أن يورد شيئا قد قاله فى المعنى ، فأمره الشيخ بذلك فقال :

جاءت سليمان الزمان بشجوها　　　والموت يلمع من جناحى خاطف
من نبأ الورقاء أن محلكم　　　حرز وأنك ملجأ للخائف
(الكامل)

فطرب لها الشيخ فخر الدين واستدناه وأجلسه قريبا منه ، وبعث إليه ، بعدما قام من مجلسه ، خلعة كاملة ودنانير كثيرة ، وبقى دائما محسنا إليه .

وفاته :

مات الإمام فخر الدين وهو فى سن الكهولة فى بلدة خوارزم حيث مرض بها ، وتوفى فى عقابيله ببلدة هراة ، وأقعده مرضه إلى أن مات يوم الاثنين غرة شوال سنة ست وستمائة (١٢٠٩ م) ، ودفن آخر النهار فى جبل قرب هراة .

وكان كثيرا مايذكر الموت ويؤثره ، ويسأل الله الرحمة ويقول : إننى حصلت من العلوم مايمكن تحصيله بحسب الطاقة البشرية ، وما بت أوثر إلا لقاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم .

وقد خلف الإمام فخر الدين ابنين الأكبر منهما يلقب بضياء الدين ، وله اشتغال ونظر فى العلوم ، والآخر ، وهو الصغير لقبه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شمس الدين وله فطرة فائقة وذكاء خارق ، وكان كثيرا مايصفه الإمام فخر الدين بالذكاء ، ويقول إن عاش ابنى هذا فإنه يكون أعلم منى ، وكانت النجابة تتبين فيه من الصغر .

ولما توفى الإمام فخر الدين بقيت أولاده مقيمين فى هراة ولقب ولده الصغير بعد ذلك فخر الدين بلقب أبيه ، وكان الوزير علاء الدين متقلدا الوزارة للسلطان خوارزمشاه .

وكان علاء الدين فاضلا متقنا العلوم والأدب والشعر بالعربية والفارسية ، وكان قد تزوج بابنة الشيخ فخر الدين ، ولما جرى أن جنكيز خان ملك التتر قهر خوارزمشاه وكسره ، وقتل أكثر عسكره ، وفقد خوارزمشاه ، توجه علاء الدين قاصدا إلى جنكيز خان ومعتصما به فلما وصل إليه أكرمه وجعله عنده من جملة خواصه ، وعندما استولى التتر على بلاد العجم وخربوا قلاعها ومدنها وكانوا يقتلون فى كل مدينة جميع من بها ولم يبقوا على أحد ، تقدم علاء الملك إلى جنكيز خان ، وقد توجهت فرقة من عساكره إلى مدينة هراة ليخربوها ويقتلوا من بها ، فسأله أن يعطيه أمانا لأولاد الشيخ فخر الدين بن خطيب الرى وأن يجيئوا بهم مكرمين إليه ، فوهب لهم ذلك وأعطاهم أمانا ، ولما ذهب أصحابه إلى هراة وشارفوا أخذها نادوا فيها بأن لأولاد فخر الدين بن الخطيب الأمان فليعزلوا ناحية فى مكان ويكون هذا الأمان معهم .

وصيته :

عندما اشتد المرض بالإمام فخر الدين ، أملى وصيته على تلميذه إبراهيم بن أبى بكر بن على الأصفهانى ، وكان ذلك فى يوم الأحد الحادى والعشرين من شهر المحرم سنة ست وستمائه ، وهذه نسخة الوصية :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

« يقول العبد الراجى رحمة ربه الواثق بكرم مولاه ، محمد بن عمر ابن الحسين الرازى وهو فى آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، وهو الوقت الذى يلين فيه كل قاس ، ويتوجه إلى مولاه كل آبق : إنى أحمده تعالى بالمحامد التى ذكرها أعظم ملائكته فى أشرف أوقات معارجهم ، ونطق بها أعظم أنبيائه فى أكمل أوقات مشاهدتهم ، بل أقول كل ذلك من نتائج الحدوث والإمكان . فأحمده بالمحامد التى تستحقها ألوهيته ، ويستوجبها لكمال الموهبة ، عرفتها أو لم أعرفها لأنه لا مناسبة للتراب مع جلال رب الأرباب ، وأصلى على الملائكة المقربين ، والأنبياء المرسلين ، وجميع عباد الله الصالحين . ثم أقول بعد ذلك : اعلموا إخوانى فى الدين ، وأخدانى فى طلب اليقين ، أن الناس يقولون الإنسان إذا مات انقطع تعلقه عن الخلق ، وهذا العام مخصوص من وجهتين : الأول أنه بقى منه عمل صالح صار ذلك سببا للدعاء له أثر عند الله . والثانى مايتعلق بمصالح الأطفال والأولاد والعورات ، وأداء المظالم والجنايات . أما الأول فاعلموا أنى كنت رجلا محبا للعلم فكنت أكتب فى كل شىء شيئا لا أقف على كمية وكيفية سواء كان حقا أو باطلا أو غثا أو سمينا . إلا أن الذى نظرته فى الكتب المعتبرة لى ، أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير مدبر منزه عن مماثلة المتحيزات والأعراض ، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة . ولقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن العظيم ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع عن التعمق فى إيراد المعارضات والمناقضات . وما ذاك إلا العلم بأن العقول البشرية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تتلاشى وتضمحل فى تلك المضايق العميقة ، والمناهج الخفية فلهذا أقول : كلما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء فى القدم والأزلية ، والتدبير والفعالية ، فذاك هو الذى أقول به وألقى الله تعالى به . وأما ما انتهى الأمر فيه إلىّ به الدقة والغموض ، فكل ماورد فى القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد ، فهو كما هو . والذى لم يكن كذلك أقول : يا إله العالمين إنى أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ، فلك مامر به قلمى أو خطر ببالى فأستشهد علمك . وأقول : إن علمت منى أنى أردت به تحقيق باطل أو إبطال حق فافعل بى ما أنا أهله ، وإن علمت منى أنى ماسعيت إلا فى تقرير ما اعتقدت أنه هو الحق ، وتصورت أنه الصدق ، فلتكن رحمتك مع قصدى لا مع حاصلى ، فذاك جهد المقل ، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع فى الزلة ، فأغثنى ، وارحمنى ، واستر زلتى ، وامح حوبتى ، يامن لا يزيد ملكه عرفان العارفين ، ولا ينتقص بخطأ المجرمين ، وأقول : دينى متابعة محمد سيد المرسلين وكتابى هو القرآن العظيم ، وتعويلى فى طلب الدين عليهما . اللهم ياسامع الأصوات ، ويامجيب الدعوات ، ويامقيل العثرات ، وياراحم العبرات ، وياقيام المحدثات والممكنات . أنا كنت حسن الظن بك ، عظيم الرجاء فى رحمتك ، وأنت قلت : أنا عند ظن العبد بى . وأنت قلت : أمن يجيب المضطر إذا دعاه . وأنت قلت : وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب . فهب أنى ماجئت بشىء فأنت الغنى الكريم ، وأنا المحتاج اللئيم . وأعلم أنه ليس لى أحد سواك ، ولا أجد محسنا سواك ، وأنا معترف بالزلة والقصور ، والعيب والفتور ، فلا تخيب رجائى ، ولا ترد دعائى ، واجعلنى آمنا من عذابك قبل الموت وعند الموت وبعد الموت ؛

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وسهل علىّ سكرات الموت وخفف عنى نزول الموت ، ولا تضيق علىّ بسبب الآلام والأسقام ، فأنت أرحم الراحمين .

وأما الكتب العلمية التى صنفتها أو استكثرت من إيراد السؤالات على المتقدمين فيها ، فمن نظر فى شيء منها فإن طابت له تلك السؤالات فليذكرنى فى صالح دعائه ، على سبيل التفضل والإنعام ، وإلا فليحذف القول السيىء فإنى ما أردت إلا تكثير البحث وتشحيذ الخاطر ، واعتمادى فيه على الله تعالى .

وسرد الوصية إلى آخرها ، ثم قال :

وأوصيه ثم أوصيه بأن يبالغ فى تربية ولدى أبى بكر . فإن آثار الذكاء والفطنة ظاهرة عليه ، ولعل الله تعالى يوصله إلى الخير . وأمرته وأمرت كل تلامذتى وكل من علىّ حق أنى إذا مت يبالغون فى إخفاء موتى ولا يخبرون أحدا به ويكفنونى ويدفنونى على شرط الشرع ، ويحملوننى إلى الجبل المصاقب لقرية مزداخان ، ويدفنونى هناك ، وإذا وضعونى فى اللحد قرأوا على ماقدروا عليه من آيات القرآن ، ثم ينثرون التراب علىّ . وبعد الإتمام يقولون : ياكريم جاءك الفقير المحتاج فأحسن إليه . وهذا منتهى وصيتى فى هذا الباب ، والله تعالى الفعال لما يشاء ، وهو على مايشاء قدير ، وبالإحسان جدير » .

شعره :

كما كان الإمام « فخر الدين » شاعراً فحلاً ، ومن نماذج شعره قوله :

١ – إليك إله الحق وجهى ، ووجهتى	وأنت الذى أدعوه فى السر والجهر
٢ – وأنت غياثى عند كل ملمّة	وأنت أنيسى حين أفرد فى القبر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وقوله :

١ – نهايةُ إقدام العقول عقالُ وأكثر سعى العالمين ضلالُ
٢ – وأرواحنا فى وحشة من جسومنا وحاصل دنيانا أذًى ، ووبال
٣ – وكم رأينا من رجالٍ ودولةٍ فبادوا جميعا مسرعين وزالوا
٤ – وكم من جبال قد علتْ شرفاتها رجالٌ فزالوا والجبالُ وِعالُ
٥ – ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أنْ جمعنا فيه قيل وقالوا

(الطويل)

وقوله :

١ – فلو قنعت نفسى بميسور بلغة لما سبقت فى المكرمات رجالها
٢ – ولو كانت الدنيا مناسبة لها لما استحقرت نقصانها وكمالها
٣ – ولا أرمق الدنيا بعين كرامة ولا أتوقى سوءها واختلالها
٤ – وذاك لأنى عارف بفنائها ومستيقن ترحالها وانحلالها
٥ – أروم أمورا يصغر عندها وتستعظم الأفلاك طرا وصالها

(الطويل)

وله أيضا :

١ – أرواحنا ليس تدرى أين مذهبها وفى التراب توارى هذه الجثث
٢ – كون يرى وفساد جاء يتبعه الله أعلم مافى خلقه عبث

(الطويل)

وقوله :

١ – الدين ممدود الرواق موطد والكفر محلول النطاق مبدد
٢ – بعد علاء الدين والملك الذى أدنى خصائصه العُلى والسودد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣ – شمس يشق جبينه حجب السما   والليـل قارى [١] الدجنّـة أسود
٤ – هو فى الجحافل إن أثير غبارها   أسد ولكـن فى المحافـل سيـد
٥ – فاذا تصدر للسماح فإنه   فى ضمن راحته الخضم [٢] المزبد
٦ – وإذا تمنطق للكفاح رأيته   فى طى لأمته [٣] الهزبر [٤] الملبد
٧ – بالجهد أدرك ما أراد من العلى   لا يدرك العلياء من لا يجهد
٨ – أبقت مساعى أتسز بن محمد   سنناً تخيرها النبـى محمـــد
٩ – أأعد أنعاما على عزيزة   والكثر لا يحصى فلست أعدد
١٠ – أجرى سوابقه على عاداتها   خيل جياد وهو منها أجود
١١ – ملك البلاد بجده وبجهده   فأطاعه الثقلان فهو مسود
١٢ – من نسل سابور [٥] ودارى [٦] نجره [٧]   صيد [٨] الملوك وذاك عندى أصيد
١٣ – خوارزم شاه جهان عشت فلايرى   لك فى الزمان على الجياد مفند
١٤ – أفنيت أعداء الإله بسيفك   الماضى شباه على العداة مهند
١٥ – أمروزتو ملك الزمان بأسره   لا شىء مثل علاك أنت الأوحد
١٦ – أشبهت ضحاك البلاد بسطوة   ترجى وتخشى جرخ تو وتسعد

(الكامل)

---

(١) نسبة إلى القار وهو مادة سوداء تطلى بها السفن قيل إنها الزفت .

(٢) البحر العظيم .

(٣) الدرع .

(٤) الأسد .

(٥) اسم عدة ملوك من بنى ساسان ويقصد بها هنا من طيب المحتد .

(٦) أى داريوس وهم اسم ثلاثة ملوك من ملوك فارس من سلالة الأخمنيين .

(٧) الأصل والحسب .

(٨) واحدها أصيد وهو الشامخ برأسه كبراً وزهواً لا يلتفت تعاظماً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مؤلفاته :

١ – التفسير الكبير للقرآن الكريم المسمى مفاتيح الغيب .
٢ – تفسير سورة الفاتحة المسمى مفاتيح العلوم .
٣ – تفسير سورة البقرة .
٤ – شرح الوجيز فى الفقه للإمام الغزالى .
٥ – المحصول فى علم أصول الفقه .
٦ – المعالم فى أصول الفقه .
٧ – القضاء والقدر .
٨ – المحصل فى نهاية العقول فى علم الأصول .
٩ – البيان والبرهان فى الرد على أهل الزيغ والطغيان .
١٠ – الأربعين فى أصول الدين .
١١ – المباحث المشرقية .
١٢ – الملخص فى الفلسفة .
١٣ – المطالب العالية فى الحكمة .
١٤ – مباحث الجدل .
١٥ – الطريقة العلائية فى الخلاف .
١٦ – لوامع البينات فى شرح أسماء الله تعالى والصفات .
١٧ – إبطال القياس .
١٨ – مباحث الجدل .
١٩ – الأربعين فى أصول الدين .
٢٠ – تأسيس التقديس .
٢١ – القضاء والقدر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٢ – رسالة الحدوث .
٢٣ – تعجيز الفلاسفة (بالفارسية) .
٢٤ – البراهين البهائية (بالفارسية) .
٢٥ – اللطائف الغياثية .
٢٦ – شفاء العيى والخلاف .
٢٧ – الخلق والبعث .
٢٨ – الخمسين فى أصول الدين .
٢٩ – عمدة الأنظار وزينة الأفكار .
٣٠ – الأخلاق .
٣١ – كتاب فى ذم الدنيا .
٣٢ – كتاب فضل الصحابة والراشدين .
٣٣ – كتاب مناقب الإمام الشافعى .
٣٤ – كتاب الرسالة الصاحبية .
٣٥ – كتاب الرسالة المحمدية .
٣٦ – كتاب عصمة الأنبياء (وهو هذا الكتاب) .
٣٧ – كتاب الإنارات فى شرح الإشارات .
٣٨ – كتاب شرح عيون الحكمة .
٣٩ – كتاب الرسالة الكمالية فى الحقائق الإلهية (ألفها بالفارسية ثم نقلها الأرموى إلى العربية) .
٤٠ – رسالة الجوهر والفرد .
٤١ – كتاب الرعاية .
٤٢ – كتاب فى الرمل .
٤٣ – كتاب مصادرات إقليدس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٤٤ – كتاب فى الهندسة .

٤٥ – كتاب نفثة المصدور .

٤٦ – كتاب الاختبارات العلائية .

٤٧ – كتاب الاختبارات السماوية .

٤٨ – كتاب إحكام الأحكام .

٤٩ – كتاب الموسوم فى السر المكتوم .

٥٠ – كتاب الرياض المونقة .

٥١ – رسالة فى النفس .

٥٢ – رسالة فى النبوات .

٥٣ – كتاب الملل والنحل .

٥٤ – كتاب مباحث الوجود .

٥٥ – منتخب كتاب دنكاوشا .

٥٦ – كتاب نهاية الإيجاز فى دراية الإعجاز .

٥٧ – كتاب شرح المفصل للزمخشرى فى النحو .

٥٨ – كتاب شرح سقط الزند .

٥٩ – كتاب شرح نهج البلاغة .

٦٠ – كتاب مباحث الجدل .

٦١ – كتاب مباحث الحدود .

٦٢ – كتاب موسوعة العلوم .

٦٣ – كتاب مسائل فى الطب .

٦٤ – كتاب الجامع الكبير فى الطب .

٦٥ – كتاب التشريح من الرأس إلى الحلق .

٦٦ – كتاب الآيات البينات .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦٧ – رسالة فى التنبيه على بعض الأسرار المودعة فى بعض سور القرآن الكريم .

٦٨ – كتاب فى النبض .

٦٩ – كتاب شرح كليات القانون .

٧٠ – كتاب الأشربة .

٧١ – كتاب الزبدة .

٧٢ – كتاب الفراسة .

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، يخلق مايشاء ويختار ماكان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عما يشركون ، خلق فسوى ؛ وقدر فهدى ، أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أرحم الراحمين وأسرع الحاسبين وأحكم الحاكمين . وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله . وخيرته من خلقه والسفير بينه وبين عباده . أرسله بالهدى والرحمة بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا . اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد فإن الله سبحانه وتعالى أكرم الإنسان وتفضل عليه بنعم لا يحصيها العد ولا يقف بها الحساب عند حد . ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) سوّاه فعدله ، فى أحسن صورة ما شاء ركبه ، وزاد فى كرامته أن نفخ فيه من روحه ، ووهبه الإنسانية العاقلة المفكرة المميزة التى ميزه بها على كل ماخلق ، وذلك لأنه أعده لأسمى الوظائف وخلقه لأشرف الأعمال : أن يتلقى العهد عن ربه فيعبده ويعرف نعم الله عليه فيقدرها قدرها ويشكرها ، ويثنى على الله الثناء الذى

---

(١) سورة النحل : الآية ١٨ .

يحبه ويشغل قلبه ولسانه وجوارحه بذكر الله وشكره رجاءاً وخوفا ورغبة ورهبة وذلا وخضوعا .

ولقد امتحن الله تعالى الإنسان فى هذه الحياة الدنيا بأنواع الفتن : من مال وبنين ، ونساء وإخوان وأصدقاء ، ورياسات وسعى فى سبل العيش وتحصيل أسباب الحياة ، مما كان له عند أكثر الناس أعظم الأثر فى صرف قلوبهم عن وظيفة العبودية وواجب الإلهية ، ولم يكن له عند خيار خلقه وصفوتهم إلا منزلة الضرورة يأخذون منها حاجتهم غير متجانفين ولا معتدين ثم رغد عيشهم ولذة قلوبهم وراحة أرواحهم فى ذكر الله والثناء عليه بما هو أهله . وإنما كان ذلك الافتتان بتلك الشواغل ، وهذه الفواتن ليعلم الله الذين صدقوا وليعلم الكاذبين ، فقد جرت سنة الله التى لا تبدل أنه مامن لذة أتم ولا نعيم أوفر مما يكون ثمرة لجهاد وصبر ، وركوب المشاق والصعاب ، وإعمال مطايا النفس فى السعى الحثيث إلى ماتحبه من تلك اللذائذ وهذا النعيم . وإن العبد لا يظفر فى ميدان الجهاد ببغيته ، ويحظى بغنيمته إلا إذا كان كامل العدة موفور القوة ، قد اتخذ للنصر أسبابه وتهيأ للغنيمة بآلات النجاح والسداد ، وماعدة المجاهد فى هذا الميدان وسلاحه وذخيرته إلا الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتوثيق الصلة الروحية بين العبد وبين ربه خالقه وبارئه وفاطره ، بإخلاص العبادة والذل والمحبة والطاعة والإسلام له وحده لاشريك له . فإن العدو الذى انتصب فى الميدان خصما قد أعلن عن خصومته وعداواته وحربه وسلاحه ، اذقال : ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ﴾ (١)

---

(١) سورة النساء : الآية ١١٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وصفه الله بأنه ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَايَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً ﴾ (١) وقال عنه : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَاتَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (٢) وكل ذلك لاسبيل للإنسان إلى معرفته من قبل نفسه ، ولا وصول له إليه بعقله مستقلا فإنها أمور خارجة عن حسه ، وعالية عن متناول تفكيره وذهنه . وجماع مايكيد به العدو للإنسان ، ويجلب عليه به بخيله ورجله : الشبهات والشهوات يقذف بها على القلوب والنفوس ، ويوالى ذلك متابعا حتى يصيب القلوب بالأمراض الفتاكة والعلل القتالة ، فتعرض عن ربها وفاطرها وبارئها وتشتغل عنه بتلك العلل والأمراض ، والعدو الألد يلبس عليها الأمر ، ويزين لها بزخرف القول وغروره ، ويعدها ويمنيها ويقسم أنه لمن الناصحين ، ومايزال كذلك جاهداً حتى ينسيها ربها مرة بانشغالها بالآلهة الأخرى من دونه أو بما انغمست فيه من شهوات أطغت الحيوانية حتى زعمت خاطئة فاجرة أن لابعث ولانشور ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّحَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَانَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ (٣) .

ووقاية القلوب من تلك الأمراض ، وطبها من هذه العلل إنما هو بيد الرسل صلوات الله عليهم فلا سبيل إلى حصول السلامة والعافية إلا من جهتهم وعلى أيديهم . فإن صلاح القلوب هو بأن تكون عارفة بربها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأحكامه ، وأن تكون مؤثرة لمرضاته ولمحابه مجتنبة لمناهيه ومساخطه ، ولا صحة لها ولا حياة ألبتة إلا بذلك . ولا سبيل إلى تلقى هذا ومعرفته إلا من جهة الرسل المبلغين عن الله

---

(١) سورة النساء : الآية ١٢٠ .

(٢) سورة الأعراف : الآيتان ١٦ ، ١٧ .

(٣) سورة الأنعام : الآية ٢٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومايظن من حصول صحة القلب بدون أتباعهم فغلط فاحش وضلال مبين ممن يظن ذلك . وإن مايحس من نشاط وقوة ، فذلك حياة نفسه البهيمية الشهوانية وصحتها وقوتها وأما حياة قلبه وصحته وقوته فعن ذلك بمعزل . ومن لم يميز بين هذا وهذا فليبك على حياة قلبه فإنه من الأموات . وعلى نوره فإنه منغمس فى بحار الظلمات .

ومن ههنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وماجاء به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا فى الدنيا ولا فى الآخرة إلاَّ على أيدى الرسل . ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ولا ينال رضا الله ألبتة إلاعلى أيديهم . فهم الميزان الراجح الذى على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأعمال والأخلاق . وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال ، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه والعين إلى نورها . والروح إلى حياتها ، فأى حاجة وضرورة فرضت فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير ، وماظنك بمن إذا غاب عنك هديه وماجاء به طرفة عين فسد قلبك وحل به من الآلام والعذاب مايكون به مثل الحوت إذا فارق الماء ووضع فى الفلا . وإذا كان هذا عمل الأنبياء عليهم من الله أفضل الصلاة والسلام – وتلك وظيفتهم فإنه لايتم الغرض منها ولا تتحقق على تمام وجهها إلا إذا كانوا من الكمال وعلو المنزلة وسمو المقام فى نفوس الناس بالدرجة التى تجعلهم أهلاً لأن يقتدى بهم فى أعمالهم وسيرتهم ، ويلتزم مايبلغون عن الله تعالى من الشرائع والآداب والأحكام .

ثم هم فوق هذه الإمامة ، وأكثر من هذه القدوة التى يلزم لها ذلك الكمال وعلو المنزلة – أشد الخلق صلة بالله تعالى ، وأقربهم إليه –

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بما نالوا من شرف تكليمه سبحانه وتعالى لهم وتنزيل وحيه عليهم ، واختصاصهم بأن يكونوا سفراءه إلى خلقه ، وحملة الأمانة العظمى إلى عباده ، والمبلغين عنه سبحانه المراسيم الإلهية والأوامر الكريمة ، والهدى والرحمة ، ﴿ اللهُ يَصْطَفِى مِنَ المَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (١) فلاغرو أن كانوا من أجل هذا ، ومن أجل غيره أكثر مما ذكرنا – صفوة خلق الله . وخلاصة عباده الذين اجتباهم وهداهم إلى صراطه المستقيم ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢) ﴿ أُولئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَاسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (٣) وإنه لتتجلى رحمة الله تعالى فى أجلى مظاهرها ، وتبدو واضحة فى أسمى معانيها فى إرسال أولئك المصطفين الخيرة هداة مرشدين ، ونصحاء مبلغين ، ورحماء واعظين ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزاً حَكِيمًا ﴾ (٤) ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ (٥) .

وجلّ الله وتعالى أن يضع تلك الإمامة فى غير موضعها ، وأن يلقى بأعباء تلك الأمانة العظمى على من لا يليق لها ، وأن يجعل حجته

---

(١) سورة الحج : الآية ٧٥ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٩٠ .

(٣) سورة مريم : الآية ٥٨ .

(٤) سورة النساء : الآية ١٦٥ .

(٥) سورة الأنبياء : الآية ٧٣ .

البالغة إلا فيمن يكون أولى بها فأنه العليم الخبير ، العزيز الحكيم ، ولقد زعم عمى القلوب والبصائر وزعم لهم شيطانهم أنهم صالحون لهذه الرسالة فأبوا أن يتبعوا رسل الله حتى يكون لهم من الوحى مثل مايتنزل عليهم فرد الله العليم الحكيم عليهم : إن الأمر ليس هملا ، وأن حكمة الله أجل أن تضع الأمر إلّاحيث يكون أوجب وأولى . وقال ﴿ وإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللهِ اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴾ (١) ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٢) وإن مما لايشك فيه عاقل أن الله العليم الخبير محال أن يتخذ رسولا رجلا تزدريه الاعين وتحقره القلوب ، سلط بوهن أخلاقه ، وحقارة نفسه ، وصغر همته ألسنة الناس عليه بالطعن والإزراء . فكيف يستطيع مثل هذا المهان المرذول أن يكون قدوة فى مكارم الأخلاق وأما ما يهدى الناس إلى صراط ربهم العزيز الحميد ؟ أو رجلا متهما فى نسبه أو ناقصا مشوها فى خلقه وجسمه يجعل منه داعيا إليه بإذنه ، والدعوة تستلزم أن يكون للداعى من المهابة فى النفوس والإجلال فى القلوب والمنزلة الكريمة عند الناس وظهور الكمال الخِلْقى والخُلُقى حتى تخضع لها الفطر السليمة والقلوب المستقيمة .

ومن أجل هذا بعث الله أنبياءه من أوسط قومهم نسبا وبرأهم من

---

(١) سورة الأنعام : الآية ١٢٤ .

(٢) سورة الزخرف : الآية ٣١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العيوب الجسمية المشوهة وأعطاهم أكمل صفات الرجولة من الشجاعة وصدق العزيمة وقوة الإرادة وشدة البأس وسعة الصدر وحدة الذهن وذكاء القلب وطلاقة اللسان وحلاوة المنطق ، وما إلى ذلك مما يكون به المختار لرسالة ربه أكمل الرجال فى قومه وقبيله وأملأهم للاسماع والأبصار .

وفى قول الله تعالى لصفوة خلقه محمد ﷺ ﴿ واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (١) ولموسى عليه السلام ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ (٣) ما يوضح بأتم أنواع الإيضاح عن شدة عناية الله تعالى بمن سبق فى علمه أن سيتخذه رسولا لخلقه وسفيرا بينه وبين عباده وليس ذلك - لعمر الله - خاصا بمحمد ﷺ ولا بموسى لشخصهما الكريمين وإنما هو لكل واحد من أنبيائه ، إذا رجعت إلى القرآن الكريم رأيت هذا فى قصص الأنبياء بينا واضحاً (إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ (٤) ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ (٥) .

وعلى الأخص من هذا صفوة الأنبياء وأفضل المرسلين سيدنا محمد ﷺ الذى نشأه الله أطيب نشأة وأزكاها وأطهرها وأبرأها وأبعدها من كل نقيصة أو دنية حتى كان زينة المجالس فى قومه ، ومرجع الأحكام وموئل

---

(١) سورة الطور : الآية ٤٨ .

(٢) سورة طه : الآية ٣٩ .

(٣) سورة طه : الآية ٤١ .

(٤) سورة الشعراء : الآيات ١٠٧ ، ١٢٥ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ١٧٨ .

(٥) سورة ابراهيم : الآية ١١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكرم ومثال عزة النفس ، فكان موضع سرهم ، وحلال مشكلاتهم وحرز أماناتهم ، فما كان يدعى بينهم إلا بالأمين عليه الصلاة والسلام وحتى قالت له السيدة خديجة حين جاءه الوحى أول مرة وخاف على نفسه أن يعجز عن هذه الوظيفة : « إن الله لا يخزيك أبداً إنك لتحمل الكل وتقرى الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الحق » .

وقال الإمام النووى فى شرح مسلم فى الكلام على حديث ضرب موسى للحجر حين عدا بثوبه ، فخرج يعدو وراءه عريانا ، ويقول : ثوبى حجر ، وطفق ضربا بالحجر يراه بنو إسرائيل فيتبين كذب افترائهم عليه أنه آدر ، قال النووى : ومن فوائد هذا الحديث ما قاله القاضى عياض وغيره : إن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين منزهون عن النقائص فى الخلق والخلق ، سالمون من العاهات والمعايب ، قالوا : ولا التفات إلى ماقاله من لا تحقيق له من أهل التاريخ فى إضافة بعض العاهات إلى بعضهم بل نزههم الله من كل عيب وكل شيء يبغض العيون أو ينفر القلوب ا هـ .

هذا ، وإن السبيل السوى ، والطريق الأقوم إلى معرفة أولئك الصفوة من خلق الله ، الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وسبقت لهم على أهل الأرض الأيادى البيضاء إنما هو كلام مصطفيهم ومختارهم ومجتبيهم وباعثهم إلى الناس مبشرين ومنذرين ، وهداة مهتدين . ولقد قص الله فى كتابه الكريم المنزل على خاتمهم وإمامهم محمد ﷺ من نبأ أولئك الأنبياء ما أبان عن جليل قدرهم وسامى مكانتهم ، وشريف مواقفهم فى الذب عن دين الله الحق ، والصبر على مالقوا من قومهم من أذى لا يصبر عليه ولا يطيقه إلا أولئك المرسلون الصادقون ، فحلوا من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفس رسول الله ﷺ ونفوس أصحابه وأتباعهم أكرم منزلة وأسمى مكانة وكانت لهم بهم أحسن قدوة . وذلك هو الذى قصد الله تعالى إليه وأراده من هذا القصص ، ومازاد الرسول ﷺ ولا أصحابه عن هذا القدر الطيب النافع ، وماسمعنا عن أحد منهم أنه ناقش النبى ﷺ فى كيف أكل آدم من الشجرة وكيف عصى ربه ؟ وهذا القصص الذى هو أصرح شيء فى وصف المعصية ، ولا ناقشوا الرسول ﷺ فى غير آدم من الأنبياء على هذا المنحى الذى نحاه المتأخرون ، ولا والله ماكان أولئك الصحابة أقل معرفة لمكانة الأنبياء من أولئك المتأخرين ، ولا أقل احتراما وإجلالا لشأنهم من أولئك المتكلفين ما لا يعنيهم والداخلين فيما ليس من شئونهم . وإنما هى القلوب السليمة ، والقلوب السقيمة . فأما الصحابة فكانت قلوبهم على فطرتها السليمة بعيدة من شكوك الشياطين وشبهاتهم فنزل عليها كلام الله بردا وسلاما وسالت أوديتها بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ، بقيت القلوب مفعمة بذلك العلم الصافى من أقوال الخلق وأهوائهم وكانوا كلما تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا على إيمانهم وهداية على هدايتهم ونورا على نورهم ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ الإيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ (١) وحبب إليهم الإيمان وزينه فى قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون فضلا من الله ونعمة ، وأما القلوب السقيمة فهى قلوب المتأخرين الذين فتح عليهم الشيطان بابا واسعا من فنون الجدل وكثرة القيل والقال والمماحكات اللفظية وأقوال أهل الكتاب من اليهود أشد الناس كراهية للأنبياء وتحقيرا لهم وكفرا بهم وتقتيلا ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ

---

(١) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَالَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ (١) ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (٢) ومن النصارى الضلال الذين غلوا فى دينهم غير الحق بجهلهم وعمى بصائرهم حتى اتخذوا عيسى وأمه إلهين من دون الله واتخذوا غيرهما كذلك من قساوستهم ورهبانهم . ومن فلسفة أرسطو وإخوانه الذين كانوا يعبدون الأصنام ويكفرون بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وزعم لهم شياطين الجن والإنس أن هذه الفلسفة هى ميزان العقل الذى لايميل وأن قضاياها المنطقية مسلمات وأن الواجب عرض ماجاءت به الأنبياء على هذه القضايا فما وافقها فهو المقبول وما خالفها لا تعبأوا به شيئا واطلبوا له وجوه الرد بكل ماتقدرون من تحريف وتأويل ودعوى أنه ظنى وأنه خبر آحاد وغير ذلك من كل مايعزله عن وظيفته ويطمس نور حقيقته . فلما فتح الشيطان هذا الباب ، وأسقم القلوب بهذه العلل أخذ يخادع أصحابها عن أنفسهم ويوهمهم أنهم لا يزالون على الهدى المستقيم وشغلهم بالمماحكات اللفظية عن المواعظ القلبية والهدايات الروحية فجرهم ذلك كله إلى مناقشة هذا القصص القرآنى مناقشات بعيدة عن الهدى والصواب وخاضوا فيما لم يخض فيه الأنبياء وأتباعهم ، بل فيما خاض فيه اليهود والنصارى وإخوانهم ، وأخذوا يتخبطون فى سبيلهم تخبط الأعمى الأصم على غير هدى ولا نور . وقد تفرقت الأمة على هذه القلوب والعلوم والفلسفات فرقا شتى وطرائق

---

(١) سورة آل عمران : الآيتان ٢١ ، ٢٢ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١١٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قددا ، كل فرقة قد أخذت من مشابهة هؤلاء وهؤلاء وهؤلاء من يهود ونصارى وفروخ اليونان بحظ ونصيب قل أو كثر على قدر افتتانهم بشبهاتهم وبعدهم عن طريق الأنبياء وهدى المرسلين وهو القرآن الذى : ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ (١) وما صح من قول الرسول المبلغ عن الله والمبين لما نزل عليه . وماوقى الله من شر هذه الفتنة إلا أهل الحديث المتبعين للأثر الذين جعلوا عقولهم وآراءهم تحت حكم ماجاء به الرسول ﷺ استمساكا بالعروة الوثقى والحبل المتين ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ﴾ (٢) « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وإن أقرب فرق هذه الأمة إلى اليهود وأشدها مشابهة لهم فى أخلاقهم وأقوالهم وقلوبهم وأعمالهم فرقة الروافض فإنهم زعموا العصمة لأئمتهم كعصمة الأنبياء أو أعظم وضلوا ، فإنما فضيلة الأنبياء وعلو قدرهم بأن الله تعالى وهبهم من العصمة والكمال بالرسالة والوحى مالم يشاركهم فيه أحد ولايساويهم فيه بشر آخر ، وإلا لم يكن لهم فضل ولا مزية ، وكانت القدوة بغيرهم مساوية للقدرة بهم ، والأخذ عنهم كالأخذ عن غيرهم ، وتلك هى مقالة أهل الكتاب وعقيدتهم الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله وكانوا يكتبون لهم الكتاب بأيديهم ويقولون هو من الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ، والرافضة ورثوا عن اليهود عداوة الأنبياء وقالة السوء فيهم وإشراكهم أئمتهم فى العصمة وادعاء أن كل ماقالوه شرع يتبع ودين

---

(١) سورة فصلت : الآية ٤٢ .

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٧١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يدان الله تعالى به ، وجوزوا على الأنبياء المعصية ولم يجوزوها على أئمتهم وموهوا فى ترويج فريتهم وباطلهم بأن الأنبياء إذا عصوا ردهم الوحى إلى الصواب وأئمتهم لاوحى يردهم وإنما تنطوى هذه المقالة الشنيعة على تفضيل أئمتهم على الأنبياء ، وذلك واضح منها جلى مهما حاولوا إخفاءه بالتمويه . وقد أخذ بعض المتصوفة عن الرافضة هذه المقالة الشنيعة وزادوا عليها بلاءاً ، إذ زعموا أن الأولياء أفضل من الأنبياء ، كما قال ذلك ابن عربى الحاتمى الطائى وغيره فى كتبهم المتداولة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة فى الرد على ابن المطهر الرافضى ، قال الأشعرى فى المقالات : واختلف الروافض فى الرسول : هل يجوز عليه أن يعصى أم لا ؟ وهم فرقتان . فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن الرسول جائز عليه أن يعصى الله . وأن النبى ﷺ قد عصى فى أخذ الفداء يوم بدر . فأما الأئمة فلا يجوز ذلك عليهم . فإن الرسول إذا عصى فإن الوحى يأتيه من قبل الله والأئمة لا يوحى إليهم ولا تهبط الملائكة عليهم وهم معصومون . فلا يجوز عليهم السهو ولا أن يغلطوا وإن جاز على الرسول العصيان . والقائل بهذا القول هشام بن الحكم والفرقة الثانية منهم يزعمون أنه لا يجوز على الرسول أن يعصى الله عز وجل ولا يجوز ذلك على الأئمة لأنهم جميعا حجج الله وهم معصومون من الزلل . ا هـ .

وقال أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل : رأينا المعروف بابن الطيب الباقلانى فيما ذكر عنه صاحبه أبو جعفر السمنانى قاضى الموصل : أنه قد يكون فى الناس بعد النبى من هو أفضل من النبى من حين يبعث إلى حين يموت ، فاستعظمنا ذلك . وهذا شرك مجرد وقدح فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النبوة لاخفاء به . وقد كنا نسمع عن قوم من المتصوفة أنهم يقولون : إن الولى أفضل من النبى وكنا لا نحقق هذا على أحد يدين بدين الإسلام إلى أن وجدنا هذا الكلام كما أوردنا فنعوذ بالله من الارتداد . قال أبو محمد : ولو أن هذا الضال المضل يدرى مامعنى لفظة « أفضل » ويدرى فضيلة النبوة لما إنطلق لسانه بهذا الكفر . وهذا التكذيب للنبى ﷺ إذ يقول : « إنى لأتقاكم الله – وإنى لست كهيئتكم – وإنى لست مثلكم » فإذ قد صح بالنص أن فى الناس من لم يجترح السيئات ، وأن من اجترح السيئات لا يساويهم عند الله عز وجل فالأنبياء عليهم السلام هم أحق بهذه الدرجة وبكل فضيلة بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام بقول الله عز وجل : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (١) فأخبر الله تعالى أن الرسل صفوته من خلقه . ا هـ .

وقد غلا جماعة فجهلوا معنى المعصية وردوا الأحاديث الصحيحة بجهلهم وغلوهم هذا إذ قالوا : إن النبى ﷺ لا يجوز عليه السهو ولا النسيان ظنا منهم أن هذا السهو معصية . وهذا من أبطل الباطل ، وقال أبو محمد بن حزم فى الملل والنحل : فإن قال قائل : فهلا نفيتم عنهم السهو بدليل الندب إلى التأسى بهم ؟ قلنا وبالله تعالى التوفيق : إنكار ماثبت كإجازة مالم يثبت سواء ولا فرق ، والسهو منهم قد ثبت بيقين . وأيضا فإن ندب الله تعالى لنا إلى التأسى بهم لا يمنع من وقوع السهو منهم ، لأن التأسى بالسهو لا يمكن إلا بسهو منا ، ومن المحال أن نندب إلى السهو أو نكلف السهو ، لأننا لو قصدنا إليه لم يكن حينئذ سهوا . ولا يجوز أيضا أن ننهى عن السهو ، لأن الانتهاء عن السهو ليس فى بنيتنا

---

(١) سورة الحج : الآية ٧٥ .

ولا فى وسعنا ، وقد قال تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (١) ونقول أيضا : إننا مأمورون إذا سهونا أن نفعل كما فعل رسول الله ﷺ إذ سها ، وأيضافإن الله تعالى لا يقر الأنبياء عليهم السلام على السهو بل ينبههم فى الوقت ، ولو لم يفعل تعالى ذلك لكان لم يبين لنا مراده منا فى الدين . وهذا تكذيب لله عز وجل إذ يقول : ﴿ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾(٢) وإذ يقول : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (٣) إلى أن قال : وما نعلم أهل قرية أشد سعيا فى إفساد الإسلام وكيده من الرافضة وأهل هذه المقالة - يعنى ابن الباقلانى وشيعته - فإن كلتا الطائفتين الملعونتين أجازتا تبديل الدين وتحريفه وصرحت هذه الفئة - مع ما أطلقت على الأنبياء من المعاصى - بأن الله تعالى تعبدنا فى دينه بغالب ظنوننا وإنه لا حكم لله إلا ماغلب عليه ظن المرء منا وإن كان مختلفاً متناقضا . وما نمترى فى أنهم ساعون فى إفساد أغمار المسلمين المحسنين بهم الظن نعوذ بالله من الضلال . ا هـ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى منهاج السنة : « وأما المسائل المتقدمة فقد شرك غير الإمامية فيها بعض الطوائف إلا غلوهم فى عصمة الأنبياء فلم يوافقهم عليه أحد حيث ادعوا أن النبى ﷺ لا يسهو . فإن هذا لا أعلم أحدا يوافقهم عليه ، اللهم إلا أن يكون من غلاة جهال النساك ، فإن بينهم وبين الرافضة قدرا مشتركا فى الغلو وفى الجهل والانقياد لما لا يعلم صحته والطائفتان شبيهتان بالنصارى فى ذلك . وقد تقرب إليهم بعض المصنفين من الغلاة فى مسألة العصمة » ا هـ .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٨٦ .
(٢) سورة النحل : الآية ٨٩ .
(٣) سورة المائدة : الآية ٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإنا لنعلم علما ضروريا أن أول من عرف الأنبياء وسمع أحاديثهم والحديث عنهم من هذه الأمة هم الصحابة رضى الله عنهم وبين ظهرانيهم نزل جبريل على النبى ﷺ بقوله تعالى : ﴿ مَاكَانَ لِنَبِىٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ واللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) ويشهدون رسول الله ﷺ حين تنزل عليه هذه الآيات فى أسرى بدر يبكى هو وأبو بكر ويبكى عمر لبكائهما وينزل جبريل على النبى ﷺ بقوله : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبيناً لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً ﴾ (٢) ويسمعون غير هذا من آيات القرآن الكريم من قصة زيد وزينب وأضرابها وأشباهها ويسمعون قول النبى ﷺ « ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا » وقوله « توبوا إلى الله فانى أتوب إلى الله فى اليوم مائة مرة » وقوله : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى . وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى هزلى وجدى وخطئى وعمدى وكل ذلك عندى » إلى غير ذلك من أدعيته الكثيرة المشهورة فى مثل هذا ، يسمع الصحابة رضى الله عنهم كل هذا ولا يزدادون إلاحبا لهذا القائل ﷺ وتعلقا به وطاعة له ، حتى ليجعلون صدورهم دون صدره ، ويفدونه بأنفسهم وكل غال ويبذلونها فى نشر دينه وملته ؛ ويحملون أشق الصعاب فى سبيل هذا طيبة به نفوسهم ، لا يرون ذلك إلاسعادة ونعيما حتى علت كلمة الله على كل كلمة ، وأتم الله نوره وأتم على الإسلام نعمته .

---

(١) سورة الأنفال : الآيتان ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) سورة الفتح : الآيتان ١ ، ٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثم نرى أولئك المتكلفين الذب عن الأنبياء والدفاع عن عصمتهم والمسودين الصحف فى محاولة تنزيههم لا يذكرون شيئا بجانب أولئك الصحابة ، لافى حب الأنبياء ولا فى اتباعهم ، ولا فى جهاد أعدائهم ، ولا فى بذل النفوس والأموال فى سبيل مرضاتهم ونصرهم . أليس هذا من أعجب العجب ؟ هذا وقد ألف الشريف المرتضى فى هذا الباب كتابا أسماه « تنزيه الأنبياء » زعم فيه كذبا وباطلا أن أهل الحديث يجوزون على الأنبياء الكبيرة قبل النبوة . ومما يدلك على كذب هذا وافترائه ماقال الإمام أبو محمد بن حزم من أئمة أهل الحديث فى الملل : فبيقين ندرى أن الله تعالى صان أنبياءه عن أن يكونوا لبغية من أولاد بغى أو من بغايا بل بعثهم الله فى حسب قومهم فإذ لاشك فى هذا فبيقين ندرى أن الله تعالى عصمهم قبل النبوة من كل ما يؤذون به بعد النبوة ا هـ . وقد اعتمد الشريف المرتضى فى كتابه هذا على عقله فى أكثر كلامه وحجاجه ، حتى أنه أورد فى الكلام على نبينا ﷺ عدة أحاديث متواترة اللفظ والمعنى ثم ردها بأدلة العقول التى لا يدخلها – عنده – الاحتمال والمجاز ، فكان فى أكثر مأأتى به غير موفق . وانه ليغلب على ظنى أنه إنما حمله على صنع كتابه هذا حرصه على عصمة أئمتهم ، وإنما اتخذ من ذكر الأنبياء دهليزًا للدخول على مقصده . فإنك تجده ذكر ثلاثة عشر نبيا تكلم عليهم فى مائة وتسع وأربعين صفحة بما فيهم نبينا محمد ﷺ وسود خمسين صفحة فى دعوى عصمة خمسة من أئمتهم ، حشاها بالدعاوى الباطلة والحجج الواهية والقول الزور مما يؤمن كل الإيمان بأن الإمام عليا وولديه الحسنين وذريتهم الطيبين رضى الله عنهم فى غنى عنه وبراء منه ومن أن يدعى لهم مساواة النبى ﷺ الذى أكسبهم الله به هذا الشرف والسعادة ، بل وبراء من أن يدعى لهم مساواة من فضلهم النبى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ﷺ عليهم كأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، ثم ألف من بعده فخر الدين الرازى كتاب عصمة الأنبياء هذا الذى نقدمه للقراء ، وسار فيه على نهج الشريف المرتضى من الحجاج العقلى ، والإعراض عن النصوص ، ورميها بأنها ظنية ، لأنها خبر آحاد ، أو لأنها لفظة أو نحو ذلك ووقع فى مثل ماوقع فيه الشريف المرتضى من الطعن على أهل الحديث الذين هم أعرف الناس بحقوق الأنبياء واتبع الناس لسبيلهم غير أنه أجاد فى مواضع من الكتاب على اختصار ونزه كتابه عن دعوى العصمة لغير الأنبياء .

وفاتنى أن أُعلق على قصة داود بكلام نفيس ذكره الإمام تقى الدين السبكى فى فتاويه . فاتماما للفائدة أنقله هنا برمته « تكلم الناس فى قصة داود عليه السلام وأكثروا . وذلك مشهور جدا . وذكروا أمورا منها ماهو منكر عند العلماء جدا . ومنها ما ارتضاه بعضهم وهو عندى منكر . وتأملت القرآن فظهر لى فيه وجه خلاف ذلك كله . فإنى نظرت قوله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ (١) فوجدته يقتضى أن المغفور فى الآية . فطلبته فوجدته أحد ثلاثة أمور : إما ظنه أن الله فتنه ، وإما اشتغاله بالحكم عن العبادة . وإما اشتغاله بالعبادة عن الحكم ، أشعر به قوله : (المحراب) وذلك أنه صح عن النبى ﷺ أن داود أعبد البشر وكان داود فى ذلك اليوم قد انقطع فى المحراب للعبادة الخاصة بينه وبين الله تعالى ، فجاء الخصوم فلم يجدوا طريقا فتسوروا عليه . وليسوا ملائكة ولا ضرب بهم المثل . وإنما هم قوم تخاصموا فى نعاج على ظاهر الآية . فلما وصلوا إليه حكم فيهم ثم إنه من شدة خوفه وكثرة عبادته خاف أن يكون

---

(١) سورة صٓ : الآية ٢٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الله سبحانه قد فتنه بذلك : إما لاشتغاله عن الحكم بالعبادة ذلك اليوم . وإما لاشتغاله عن العبادة بالحكم تلك اللحظة وظن أن الله فتنه أى امتحنه واختبره هل يترك الحكم للعبادة أو العبادة للحكم ؟ فاستغفر ربه . فاستغفاره لأحد هذين الأمرين المظنونين أعنى تعلق الظن بأحدهما . قال الله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ (١) فاحتمل المغفور أحد هذين الأمرين ، واحتمل ثالثا وهو ظنه أن يكون الله لم يرد فتنته ، وإنما أراد إظهار كرامته . وانظر قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٢) كيف يقتضى رفعة قدره . وقوله : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ (٣) يقتضى ذلك ويقتضى ترجيح الحكم على العبادة . وعلى أى وجه من الأوجه الثلاثة حملته حصل تبرئة داود عليه السلام مما يقوله القصاص وكثير من الفضلاء اهـ .

وللإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فى كتاب « مفتاح دار السعادة » فصول قيمة جدا فى الكلام على قصة آدم عليه السلام ومافيها من الحكم البالغة والمعانى السامية ، وله فصول فى آخر الجزء الثانى فى فضل توبة آدم ومزيتها من أحلى وأبدع ماكتب الكاتبون تريك أن ذلك كان من أعظم نعم الله على آدم ، وإكرامه : فطالعه فإنه ينفعك . وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه .

* * *

---

(١)،(٢) سورة صَ : الآية ٢٥ .
(٣) سورة صَ : الآية ٢٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله المتعالى بجلال أحديته عن مسارح الخواطر والأوهام ، المقدس بكمال صمديته عن مسابح البصائر والأفهام . المتنزه لوجوب هويته عن مشاكلة الأعراض والأجسام . المبرأ بعظمة إلّهيته عن بواعث الإقدام وصوارف الإحجام ، الذى لا يتغير بكرور الدهور ومرور الشهور والأعوام . ولا يؤوده إنعام سجال الخواص والعوام من الإحسان والإنعام . والصلاة على محمد المبعوث إلى كافة الأنام ، والسلام على آله وأصحابه أئمة الإسلام .

أما بعد فهذه رسالة عملناها فى النضح عن رسل الله وأنبيائه والذب عن خلاصة خلقه وأتقيائه ، وإبانة ما أتى به أهل الحشو من إحالة الذنوب والجرائم عليهم ، ونسبة الفضائح والقبائح إليهم ، وأنه زور وبهتان ، وحسبان عاطل عن الحجة والبرهان ، وأنهم يتجشئون من غير شبع ، ويطمعون فى غير مطمع ، وأن شبهاتهم لاتقوى على مقاومة الساعد الأشد ولا تسم على المنهج الأسد ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً ﴾ (١) والله المحمود على ما أفاض من توفيق ، والمشكور على مامنح من تحقيق ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

---

(١) سورة الكهف : الآية ٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فصــل
فى شرح الأقوال والمذاهب فى هذه المباحث والمطالب

اعلم أن الاختلاف فى هذه المسألة واقع فى أربعة مواضع :

الموضع الأول : مايتعلق بالاعتقادية . واجتمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون عن الكفر والبدعة إلا الفُضَيْلية من الخوارج فإنهم يجوزون الكفر على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وذلك لأن عندهم يجوز صدور الذنوب عنهم ، وكل ذنب فهو كفر عندهم ، فبهذا الطريق جوزوا صدور الكفر عنهم ، والروافض فإنهم يجوزون عليهم إظهار كلمة الكفر على سبيل التقية (١) .

الموضع الثانى : مايتعلق بجميع الشرائع والأحكام من الله تعالى ، وأجمعوا على أنه لا يجوز عليهم التحريف والخيانة فى هذا الباب لا بالعمد ولا بالسهو ، وإلا لم يبق الاعتماد على شىء من الشرائع .

الموضع الثالث : مايتعلق بالفتوى . وأجمعوا على أنه لا يجوز تعمد الخطأ . فأما على سبيل السهو فقد اختلفوا فيه .

---

(١) قال أبو محمد بن حزم رحمه الله فى الملل والنحل : « فذهبت طائفة إلى أن الرسل صلى الله عليهم وسلم يعصون الله فى جميع الكبائر والصغائر عمدا ، حاش الكذب فى التبليغ فقط . وهذا قول الكرامية من المرجئة ، وقول ابن الطيب الباقلانى من الأشعرية ومن تبعه ، وهو قول اليهود والنصارى ، وسمعت من يحكى عن بعض الكرامية أنهم يجوزون على الرسل الكذب فى التبليغ . وأما هذا الباقلانى فإنا رأينا فى كتاب صاحبه أبى جعفر السمنانى قاضى الموصل أنه كان يقول : كل ذنب دق أو جل فإنه جائز على الرسل حاش الكذب فى التبليغ فقط . قال : وجائز عليهم أن يكفروا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الموضع الرابع : مايتعلق بأفعالهم وأحوالهم . وقد اختلفوا فيه على خمسة مذاهب : (المذهب الأول) الحشوية وهو أنه يجوز عليهم الإقدام على الكبائر والصغائر ، (المذهب الثانى) أنه لا يجوز منهم تعمد الكبيرة ألبتة وأما تعمد الصغيرة فهو جائز ، بشرط أن لا تكون منفرا . وأما إن كانت منفرا فذلك لا يجوز عليهم ، مثل التطفيف بما دون الحبة [1] وهو قول أكثر المعتزلة (المذهب الثالث) أنه لا يجوز عليهم تعمد الكبيرة والصغيرة ، ولكن يجوز صدور الذنب منهم على سبيل الخطأ فى التأويل ، وهو قول أبى على الجبائى (المذهب الرابع) أنه لا يجوز عليهم الكبيرة ولا الصغيرة ، لا بالعمد ولا بالتأويل والخطأ . أما السهو والنسيان فجائز ثم إنهم يعاتبون على ذلك السهو والنسيان ، لما أن علومهم أكمل ، فكان الواجب عليهم المبالغة فى التيقظ ، وهو قول أبى إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، (المذهب الخامس) أنه لا يجوز عليهم الكبيرة ولا الصغيرة لا بالعمد ولا بالتأويل ولا بالسهو والنسيان . وهذا مذهب الشيعة .

واختلفوا أيضا فى وقت وجوب هذه العصمة ، فقال بعضهم : إنها من أول الولادة إلى آخر العمر ، وقال الأكثرون : هذه العصمة إنما تجب فى زمان النبوة . فأما قبلها فهى غير واجبة . وهو قول أكثر أصحابنا رحمهم الله تعالى .

والذى نقول : إن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون فى زمان النبوة عن الكبائر والصغائر بالعمد . أما على سبيل السهو فهو جائز . ويدل على وجوب العصمة حجج خمسة عشرة :

---

(١) الحبة صنجة تزن مائة حبة خردل وهى جزء من ستين من المثقال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحجة الأولى : لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم فى استحقاق الذم عاجلا والعقاب آجلا أشد من حال عصاة الأمة . وهذا باطل فصدور الذنب أيضاً باطل ، بيان الملازمة ؛ أن أعظم نعم الله على العباد هى نعمة الرسالة والنبوة . وكل من كانت نعم الله تعالى عليه أكثر كان صدور الذنب عنه أفحش ، وصريح العقل يدل عليه ، ثم يؤكده من لنقل ثلاثة وجوه (الوجه الأول) قوله تعالى : ﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ يَانِسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾ (٢) ، (الوجه الثانى) أن المحصن يرجم وغيره يجلد (الوجه الثالث) أن العبد يحد نصف حد الحر ، فثبت بماذكرنا أنه لو صدر الذنب عنهم لكان حالهم فى استحقاق الذم العاجل والعقاب الآجل فوق حال جميع عصاة الأمة ، إلا أن هذا باطل بالإجماع فإن أحداً لا يجوز أن يقول إن الرسول أحسن حالا عند الله وأقل منزلة من كل أحد . وهذا يدل على عدم صدور الذنب عنهم .

الحجة الثانية : لو صدر الذنب عنهم لما كانوا مقبولى الشهادة لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ (٣) أمر بالتثبت والتوقف فى قبول شهادة الفاسق ، إلا أن هذا باطل فإن من لم تقبل شهادته فى حال الدنيا فكيف تقبل شهادته فى الأديان الباقية إلى يوم القيامة ، وأيضاً فإنه تعالى شهد بأن محمداً عليه الصلاة والسلام

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٢ .
(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٠ .
(٣) سورة الحجرات : الآية ٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شهيد على الكل يوم القيامة ، قال : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (١) ومن كان شهيداً لجميع الرسل يوم القيامة كيف يكون بحال لا تقبل شهادته فى الجنة .

الحجة الثالثة : لو صدر الذنب عنهم لوجب زجرهم ، لأن الدلائل دالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لكن زجر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير جائز ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ (٢) فكان صدور الذنب عنهم ممتنعا .

الحجة الرابعة : لو صدر الفسق عن محمد عليه الصلاة والسلام لكنا إما أن نكون مأمورين بالاقتداء به وهذا لايجوز ، أو لا نكون مأمورين بالاقتداء به وهذا أيضا باطل لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ﴾ (٣) ولقوله تعالى : ﴿ فاتبعوه ﴾ ولما كان صدور الفسق يفضى إلى هذين القسمين الباطلين كان صدور الفسق عنه محالا .

الحجة الخامسة : لو صدرت المعصية عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لوجب أن يكونوا موعودين بعذاب الله بعذاب جهنم ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فِيهَا

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٤٣ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٢٣ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٣١

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ (١) ولكانوا ملعونين ، لقوله تعالى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) وبإجماع الأمة هذا باطل فكان صدور المعصية عنهم باطلا .

الحجة السادسة : أنهم كانوا يأمرون بالطاعات وترك المعاصى ولو تركوا الطاعة وفعلوا المعصية لدخلوا تحت قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالَاتَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ (٣) وتحت قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ﴾ (٤) ومعلوم أن هذا فى غاية القبح ، وأيضا أخبر الله تعالى عن رسوله شعيب عليه الصلاة والسلام أنه برأ نفسه من ذلك ، فقال : ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ (٥) .

الحجة السابعة : قال الله تعالى فى صفة إبراهيم وإسحاق ويعقوب ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ (٦) والألف واللام فى صيغة الجمع تفيد العموم فدخل تحت لفظ (الخيرات) فعل كل ماينبغى وترك كل ما لا ينبغى ، وذلك يدل على أنهم كانوا فاعلين لكل الطاعات وتاركين لكل المعاصى .

الحجة الثامنة : قوله تعالى ﴿ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ

---

(١) سورة النساء : الآية ١٤ .
(٢) سورة هود : الآية ١٨ .
(٣) سورة الصف : الآية ٣ .
(٤) سورة البقرة : الآية ٤٤ .
(٥) سورة هود : الآية ٨٨ .
(٦) سورة الأنبياء : الآية ٩٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الْأَخْيَارِ ﴾ (١) وهو أن اللفظين أعنى قوله تعالى (المصطفين) وقوله (الأخيار) يتناولان جملة الأفعال والتروك ، بدليل جواز الاستثناء ، يقال : فلان من المصطفين الأخيار إلا فى كذا ، والاستثناء يخرج من الكلام مالولاه لدخل ، فدلت هذه الآية على أنهم كانوا من المصطفين الأخيار فى كل الأمور ، وهذا ينافى صدور الذنب عنهم ، ونظيره قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ (٢) وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) وقال فى حق إبراهيم : ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (٤) وقال فى حق موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾ (٥) وقال تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ . إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴾ (٦) .

لا يقال : الاصطفاء لا يمنع من فعل الذنب ، بدليل قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (٧) قسم المصطفين إلى الظالم والمقتصد والسابق ، لأنا نقول : الضمير فى قوله (فمنهم) عائد إلى قوله (من عبادنا) لا إلى قوله (الذين اصطفينا) لأن عود الضمير إلى أقرب المذكورين واجب .

---

(١) سورة صٓ : الآية ٤٧ .

(٢) سورة الحج : الآية ٧٥ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ٣٣ .

(٤) البقرة : الآية ١٣٠ .

(٥) سورة الأعراف : الآية ١٤٤ .

(٦) سورة صٓ : الآية ٤٦ .

(٧) سورة فاطر : الآية ٣٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحجة التاسعة : قوله تعالى حكاية عن إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١) استثنى المخلصين من إغوائه وإضلاله ، ثم إنه تعالى شهد على إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم الصلاة والسلام أنهم من المخلصين ، حيث قال ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ﴾ وقال فى حق يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٢) فلما أقر إبليس أنه لا يغوى المخلصين ، وشهد الله بأن هؤلاء من المخلصين ثبت أن إغواء إبليس ووسوسته ماوصلت إليهم ، وذلك يوجب القطع بعدم صدور المعصية عنهم .

الحجة العاشرة : قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) فهؤلاء الذين لم يتبعوا إبليس أما أن يقال : إنهم الأنبياء أو غيرهم ، فإن كانوا غيرهم لزم أن يكونوا أفضل منهم ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (٤) وتفضيل غير النبى على النبى باطل بالإجماع . فوجب القطع بأن أولئك الذين لم يتبعوا إبليس هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وكل من أذنب فقد اتبع إبليس فدل هذا على أن الأنبياء صلوات الله عليهم ما أذنبوا .

الحجة الحادية عشرة :أنه تعالى قسم المكلفين إلى قسمين : حزب الشيطان كما قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ

---

(١) سورة صٓ : الآية ٨٣ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٢٤ .

(٣) سورة سبأ : الآية ٢٠ .

(٤) سورة الحجرات : الآية ١٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (١) وحزب الله كما قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) ولا شك أن حزب الشيطان هو الذى يفعل مايريد الشيطان ويأمره به ، فلو صدرت الذنوب عن الأنبياء لصدق عليهم أنهم من حزب الشيطان ، ولصدق عليهم قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُون ﴾ ولصدق على الزهاد من آحاد الأمة قوله تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وحينئذ يلزم أن يكون واحد من آحاد الأمة أفضل بكثير من الأنبياء ، ولا شك فى بطلانه .

الحجة الثانية عشرة : إن أصحابنا رحمهم الله تعالى بينوا أن الأنبياء أفضل من الملائكة وثابت بالدلالة أن الملائكة ما أقدموا على شىء من الذنوب ، فلو صدرت الذنوب عن الأنبياء لامتنع أن يكونوا زائدين فى الفضل على الملائكة لقوله تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ (٣) .

الحجة الثالثة عشرة : قال الله تعالى فى حق إبراهيم عليه الصلاة والسلام : ﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً ﴾ (٤) والإمام هو الذى يقتدى به فلو صدر الذنب عن إبراهيم لكان اقتداء الخلق به فى ذلك الذنب واجبا وإنه باطل .

الحجة الرابعة عشرة : قوله تعالى : ﴿ لَايَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ ﴾ (٥)

---

(١) سورة المجادلة : الآية ١٩ .

(٢) سورة المجادلة : الآية ٢٢ .

(٣) سورة صٓ : الآية ٢٨ .

(٤)،(٥) سورة البقرة : الآية ١٢٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فكل من أقدم على الذنب كان ظالما لنفسه لقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ﴾ (١) .

إذا عرفت هذا فنقول : ذلك العهد الذى حكم الله تعالى بأنه لايصل إلى الظالمين إما أن يكون هو عهد النبوة أو عهد الإمامة ، فإن كان الأول فهو المقصود ، وإن كان الثانى فالمقصود أظهر ، لأن عهد الإمامة أقل درجة من عهد النبوة ، فإذا لم يصل عهد الإمامة إلى المذنب العاصى ، فبأن لايصل عهد النبوة إليه أولى .

الحجة الخامسة عشرة : روى أن خزيمة بن ثابت الأنصارى رضى الله عنه شهد على وفق دعوى النبى ﷺ ، مع أنه ماكان عالماً بتلك الواقعة فقال خزيمة : « إنى أصدقك فيما تخبر عنه من أحوال السماء ، أفلا أصدقك فى هذا القدر ؟! فلما ذكر ذلك صدقه النبى ﷺ فيه ولقبه بذى الشهادتين (٢) ولو كان الذنب جائزاً على الأنبياء لكانت شهادة خزيمة غير جائزة .

واعلم : أنا لما فرغنا من ذكر الدلائل الدالة على عصمة الأنبياء فلنذكر الآن مايدل على عصمة الملائكة ، ويدل عليه وجوه أربعة :

---

(١) سورة فاطر : الآية ٣٢ .

(٢) هو خزيمة بن ثابت الأوسى الأنصارى من السابقين الأولين . روى عنه ابنه عمارة أن النبى ﷺ اشترى فرساً من سواء بن قيس المحاربى فجحده سواء فشهد خزيمة للنبى ﷺ فقال له النبى ﷺ : « ماحملك على الشهادة ولم تكن معنا حاضراً ؟ قال : صدقتك بما جئت به وعلمت أنك لا تقول إلا حقاً فقال النبى ﷺ : من شهد له خزيمة أو عليه فهو حسبه » وحديثه رواه أبو داود وغيره . وجعل شهادته بشهادتين رواه البخارى .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأول : قوله تعالى فى صفة الملائكة : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَايُؤْمَرُونَ ﴾ (١) يتناول جميع الملائكة فى فعل جميع المأمورات وترك جميع المنهيات ، لأن كل من نهى عن فعل فقد أمر بتركه .

الثانى : قوله تعالى فى وصفهم : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ (٣) وما كانت صفته كذلك لا يصدر عنه الذنب .

الرابع أن الملائكة رسل الله لقوله تعالى : ﴿ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾ (٤) والرسل معصومون لقوله تعالى فى تعظيمهم : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ (٥) .

فهذا مجموع الدلائل على عصمة الأنبياء وعصمة الملائكة صلوات الله عليهم أجمعين .

واعلم : أن شبهات المخالفين فى هذه المسألة كثيرة ، ونحن نذكرها على سبيل الاختصار .

* * *

---

(١) سورة النحل : الآية ٥٠ .

(٢) سورة الأنبياء : الآية ٢٦ .

(٣) سورة الأنبياء : الآية ٢٠ .

(٤) سورة فاطر : الآية ١ .

(٥) سورة الأنعام : الآية ١٢٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عصمة آدم عليه السلام

أما قصة آدم عليه السلام فقد تمسكوا بها من وجوه ستة :

الوجه الأول : أنه كان عاصيا والعاصى لابد وأن يكون صاحب الكبيرة ، وإنما قلنا : إنه كان عاصياً لقوله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ (١) وإنما قلنا إن العاصى صاحب الكبيرة لوجهين : **أحدهما** : أن النص يقتضى كونه معاقباً وهو قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خَالِداً فيها ﴾ (٢) ولا معنى لصاحب الكبيرة إلا من فعل فعلا يعاقب عليه ، **وثانيهما** : أن العصيان اسم ذم فلا يطلق إلا على صاحب الكبيرة .

الوجه الثانى : أنه تائب والتائب مذنب . وإنما قلنا إنه تائب لقوله تعالى ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (٣) وقوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾ (٤) وإنما قلنا إن التائب مذنب لأن التائب هو النادم على فعل الذنب والنادم على فعل الذنب مخبر عن كونه فاعلا للذنب ، فإن كذب فى ذلك الإخبار فهو مذنب بفعل الكذب وإن صدق فيه فهو المطلوب .

الوجه الثالث : أنه ارتكب المنهى عنه، لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ ﴾ (٥) وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ (٦) وارتكاب المنهى عنه عين الذنب .

---

(١) سورة طه : الآية ١٢١ .
(٢) سورة النساء : الآية ١٤ .
(٣) سورة طه : الآية ١٢٢ .
(٤) سورة البقرة : الآية ٣٧ .
(٥) سورة الأعراف : الآية ٢٢ .
(٦) سورة الأعراف : الآية ١٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوجه الرابع : أنه تعالى سماه ظالما فى قوله : ﴿ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) وهو أيضا سمى نفسه ظالما فى قوله : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ (٢) والظالم ملعون لقوله تعالى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) ومن كان كذلك كان صاحب كبيرة .

الوجه الخامس : أنه اعترف بأنه لولا مغفرة الله تعالى له لكان خاسرا فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ وذلك يقتضى كونه صاحب كبيرة .

الوجه السادس : أنه أخرج من الجنة بسبب وسوسة الشيطان وإزلاله جزاء على ما أقدم عليه من طاعة الشيطان ، وذلك يدل على كونه صاحب كبيرة .

ثم قالوا : إن كل واحدة من هذه الوجوه لا يدل على كونه فاعل كبيرة ، ولكن مجموعها قاطع فى الدلالة عليه ، ويجوز أن يكون كل واحد من الوجوه وإن لم يكن دالا على الشيء إلا أنها عند الاجتماع تصير دالة كما قلنا فى القرائن والجواب عن الكل عندنا : أن ذلك كان قبل النبوة ، فلا يكون واردا علينا .

فأما الذين لم يجوزوا صدور المعصية عن الأنبياء قبل النبوة فقد أجابوا عن كل واحدة من هذه الوجوه .

أما الأول : فقالوا : المعصية مخالفة الأمر ، فالأمر قد يكون بالواجب والندب ، فإنهم يقولون : أشرت عليه فى أمر ولده بكذا

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٩ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٣ .
(٣) سورة هود : الآية ١٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعصانى ، وأمرته بشرب الدواء فعصانى ، وان كان كذلك لم يمتنع أن يكون إطلاق اسم العصيان على آدم ، لا لكونه تاركا للواجب بل للمندوب .

ولقائل أن يقول : إنا قد بينا أن ظاهر القرآن يدل على أن العاصى يستحق العقاب وذلك يقتضى تخصيص اسم العاصى بترك الواجب فقط ، وبينا أنه أيضا اسم ذم ؛ فوجب أن لا يتناول إلا تارك الواجب ، ولأنه لو كان تارك المندوب عاصيا لوجب وصف الأنبياء بأنهم عصاة فى كل حال وأنهم لاينفكون عن المعصية ، لأنهم لا يكادون ينفكون عن ترك المندوب ، لايقال : وصف تارك المندوب بأنه عاص مجاز والمجاز لا يطرد . لأنا نقول : لما سلمت كونه مجازا فالأصل عدمه وحينئذ يتم استدلال الخصم .

فأما قوله : أشرت إليه فى أمر ولده بكذا فعصانى فإنا لا نسلم أن هذا الاستعمال مروى عن العرب ، وإن سلمناه لكنهم إنما يطلقون ذلك إذا جزموا على المستشير بأنه لابد وأن يفعل ذلك الفعل ، وأنه لايجوز الإخلال به وحينئذ يكون معنى الإيجاب حاصلا ، وان لم يكن الوجوب حاصلا . وذلك يدل على أن لفظ العصيان لايجوز إطلاقه إلا عند تحقق الإيجاب لكن أجمعنا على أن الإيجاب من الله يقتضى الوجوب ، فلزم أن يكون إطلاق لفظ العصيان على آدم إنما كان لكونه تاركا للواجب .

وأما الثانى : وهو أنه تائب ، فقد أجاب من جوز الصغيرة بأن التوبة تجب من الصغائر كما تجب من الكبائر ، فإن الصغيرة إذا لم يتب منها صاحبها صار مصرا عليها والإصرار على أى ذنب كان كبيرة .

وأما من لم يجوز الصغيرة فقد أجاب بأن التوبة قد تحسن ممن لم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يذنب قط على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والرجوع إليه ، ويكون وجه حسنها استحقاق الثواب بها ابتداءاً . والذى يدل عليه أنا نقول : « اللهم اجعلنا من التوابين » فلو كان حسنها مسبوقا بفعل الذنب لكان ذلك سؤالا لصيرورتنا مذنبين ؛ وأنه لا يجوز .

وأما الثالث : فهو ارتكاب المنهى ، فالجواب أنا نقول : لا نسلم أن النهى للتحريم فقط ، بل هو مشترك بين التحريم والتنزيه وتفسيره أن النهى يفيد أن جانب الترك راجح على جانب الفعل ، فأما جانب الفعل فهل يقتضى استحقاق العقاب أو لا يقتضى ؟ فذلك خارج عن مفهوم اللفظ وإذا كان كذلك سقط الاستدلال . سلمنا أن النهى للتحريم لكنه ارتكبه ناسياً لقوله تعالى : ﴿ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ (١) وحينئذ لم يكن ذنباً لأن التكليف مرتفع عن الناسى ، ولقائل أن يقول : لانسلم أنه ارتكبه ناسيا ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ مَانَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ ﴾ (٢) وقوله : ﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (٣) وكل ذلك يدل على أنه مانسى النهى حال الإقدام على ذلك الفعل ، وأيضاً فلانه لو كان ناسياً لما عوتب على ذلك الفعل ، ولما سمى بالعاصى ، فحيث عوتب عليه دل على أنه ماكان ناسياً ، وأما قوله تعالى : (فنسى) ففيه إثبات أنه نسى وليس فيه أنه مانسى سلمنا أنه لم يكن ناسياً ولكنه اخطأ فى الاجتهاد وذلك لأن كلمة (هذه) فى قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾ قد يراد بها الإشارة إلى الشخص وقد يراد بها

---

(١) سورة طه : الآية ١١٥ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٠ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ٢١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الإشارة إلى النوع كما فى قوله عليه الصلاة والسلام : « هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به » فآدم عليه الصلاة والسلام اشتبه الأمر عليه فظن أن المراد هو الشخص فعدل عنه إلى شخص آخر إلا أن المجتهد إذا أخطأ فى الفروع لم يكن صاحب كبيرة .

لا يقال : كلمة (هذه) لما احتملت الأمرين كان البيان حاصلا فى ذلك الوقت لأن تأخير البيان عن وقت الحاجة لايجوز وإذا كان البيان حاصلا لم يكن آدم عليه السلام معذوراً فى ذلك الخطأ لأنا نقول : لعل البيان كان حاصلا بطريق غامض خفى فالمخطىء فيه معذور .

وأما الرابع : وهو أن الله تعالى سماه ظالما فقد أجاب عنه من يجوز الصغيرة بأن كل ذنب يأتى به المكلف كبيرا كان أو صغيرا فهو ظالم لنفسه . وأما من لم يجوزها فأجاب بأن ترك الأولى ظلم ، لأنه لما كان متمكنا من فعل الأولى حتى يستحق به الثواب العظيم فلما تركه من غير موجب فقد ترك حظ نفسه ومثل هذا يجوز أن يسمى ظالما لنفسه ، لأن حقيقة الظلم وضع الشيء فى غير موضعه وهاهنا كذلك .

وأما الخامس : فالجواب عنه : أنه محمول على الصغيرة أو على ترك الأولى وتقديره ماتقدم .

وأما السادس : فجوابه : أنه ليس فى الآية إلا أنه أخرج من الجنة عند إقدامه على هذا الفعل ، أو لأجل إقدامه على هذا الفعل وذلك لايدل على أن ذلك الإخراج كان على سبيل التنكيل والاستخفاف وكيف والله تعالى إنما خلق آدم ليكون خليفة فى الأرض ، فلما كان المقصود الأصلى من خلقه ذلك ؛ فكيف يقال : إنه وقع ذلك عقوبة واستخفافا ثم الذى يدل على أنه لابد من المصير إلى الوجوه التى ذكرناها هو أنه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عليه الصلاة والسلام لو كان عاصيا فى الحقيقة وكان ظالما فى الحقيقة لوجب الحكم عليه بأنه كان مستحقا للنار ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ (١) وبأنه كان ملعونا لقوله تعالى ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) فلما اجتمعت الأمة على أن ذلك لا يجوز علمنا قطعا أنه لابد من التأويل وبالله التوفيق .

وتمسكوا بقوله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (٣) .

قالوا : لاشك أن النفس الواحدة هى آدم ، وزوجها المخلوق منهاهى حواء فهذه الكنايات عائدة إليهما قوله تعالى : ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يقتضى صدور الشرك عنهما ثم قالوا : إن إبليس لما أن حملت حواء عرض لها ولد فقال لها : إن أحببت أن يعيش ولدك فسميه بعبد الحارث وكان إبليس يسمى الحارث ، فلما ولدت سمته بهذه التسمية فلذا قال الله تعالى ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ .

والجواب الصحيح انا لا نسلم ان النفس الواحدة فى هذه الآية هى آدم عليه السلام ، وليس فى الآية ما يدل على ذلك ، بل نقول : الخطاب لقريش ، وهو آل قصى . والمعنى خلقكم من نفس

---

(١) سورة الجن : الآية ٢٣ .

(٢) سورة هود : الآية ١٨ .

(٣) سورة الأعراف : الآيتان ١٨٩ ، ١٩٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصى وجعل من جنسها زوجها عربية قرشية ليسكن إليها . فلما آتاهما ما طلبا من الولد الصالح السمى سميا أولادهما الأربعة بعبد مناف . وعبد العزى . وعبد قصى . وعبد الدار ، والضمير فى (يشركون) لهما ولأعقابهما . وذكروا وجوها أخر سوى ماذكرناه وهى بأسرها ضعيفة .

أولها : أن الكنايات كلها عن آدم وحواء ، إلا فى (جعلا) و (يشركون) فإنهما يرجعان إلى نسلهما وعقبهما ، ويكون تقدير الكلام : فلما آتى الله آدم وحواء الولد الصالح الذى طلباه جعل كفار أولادهما ذلك مضافا إلى غير الله ، وإنما ثنى ذكرهما لانهما جنسان ذكر وأنثى ، ويقوى هذا التأويل قوله : ﴿ فَتَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ وذلك يدل على أن المراد بالتثنية ماذكرناه من الجنسين .

وثانيها :أن قوله : ﴿ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ﴾ هو آدم وجعل من تلك النفس زوجها ، وهى حواء ، إلى ههنا حديث آدم وحواء .

ثم خص بالذكر المشركين من أولاد آدم الذين سألوا ما سألوا وجعلوا له شركاء . ويجوز أن يذكر العموم ثم يخص بعض المذكور بالذكر . ومثله كثير فى الكلام . قال الله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (١) فعم جميع الخلق فى أول الآية ثم خص فى آخرها بعضهم . فكذا ههنا .

واعلم أن هذين يقتضيان فى الكنايات المتوالية عقيب مذكور واحد صرف بعضها إلى ذلك المذكور وبعضها إلى شىء آخر . وذلك يفكك النظم .

---

(١) سورة يونس : الآية ٢٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثالثها : أن تكون الهاء فى قوله تعالى ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ ﴾ راجعة إلى الولد ، لا إلى الله تعالى . ويكون المعنى إنهما طلبا من الله تعالى ابنا لا الولد الصالح وهو كقوله : طلبت منى درهما فلما أعطيتك أشركته بآخر أى طلبت آخر مضافا إليه وهذا ضعيف لوجهين **أحدهما** : أن الهاء فى قوله (له) لما عاد إلى الولد يصير قوله تعالى فلما آتاهما صالحا ، **والثانى** : وهو أنه يصير قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ منقطعا عما قبله وذلك يوجب الركاكة . فهذا هو الكلام على الآية .

وأما الرواية التى ذكروها فهى ضعيفة لوجوه ثلاثة :

الأول : أنها من باب الآحاد فلا يكون مقبولا فى العلميات .

الثانى : أنه إما أن يقال : بأن آدم وحواء اعتقدا أن الولد من خلق إبليس أو لم يعتقدا ذلك ولكنهما سميا ولدهما بعبد الحارث مع أن الحارث كان اسم إبليس ، فإن كان الأول لزم أن يكون آدم وحواء قد اعتقدا إلٰهية إبليس ، وذلك مما لا يذهب إليه عاقل . وإن كان الثانى لم يلزم منه الكفر والشرك ، لأن الأعلام تفيد تسمية الولد بعبد الحارث لا تفيد كونه عبد الحارث ، فإن الأعلام قائمة مقام الإشارة فقط ولا يلزم منه الكفر والفسق أصلا .

الثالث : أن العداوة الشديدة التى كانت من آدم وإبليس من أول الأمر إلى وقت ذلك ذلك الحمل مانعة لآدم من الاغترار به ، هب أن آدم لم يكن نبياً ولم يكن مسلماً ، أما كان عاقلا ؟ فصح أن هذه الرواية الخبيثة لايجوز أن يقبلها عاقل فضلا عن مسلم (١) .

---

(١) قال الإمام الحافظ أبو محمد بن حزم فى كتاب الملل والنحل : وهذا الذى نسبوه إلى آدم عليه السلام من أنه سمى ابنه عبد الحارث خرافة موضوعة مكذوبة من تأليف من لادين له ولاحياء ولم يصح سندها قط وإنما نزلت الآية فى المشركين على ظاهرها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة نوح عليه السلام

وفيها شبهتان :

الشبهة الأولى : تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ آبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ . قَالَ يَانُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) من وجهين : **الأول** : أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ يدل على أنه لم يكن ابنا ، وإذا كان كذلك كان قوله : ﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ كذبا ، وهو معصية **الثاني** : أن سؤال نوح عليه السلام كان معصية لثلاث آيات : **أحدها** : قوله : ﴿ لَاتَسْأَلْنِ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) . **وثانيها** : قوله خبراً عن نوح : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَالَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣) **وثالثها** : قوله : ﴿ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ . وفيها قراءتان : قراءة الكسائي عمل غير صالح ، والمعنى أن ابنك عمل غير صالح والباقون بالتنوين والرفع . والأول مرجوح لأنه يقتضي إضمار الموصوف (٤)

---

(١) سورة هود : الآيتان ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) قال أبو محمد بن حزم : وهذا لا حجة لهم فيه ، لأن نوحا عليه السلام تأول وعد الله تعالى أن يخلصه وأهله ، فظن أن ابنه من أهله على ظاهر القرابة وهذا لو فعله أحد كان مأجوراً ولم يسأل نوح تخليص من أيقن أنه ليس من أهله فتفرع على ذلك نهى عن أن يكون من الجاهلين فندم عليه السلام ونزع وليس ههنا عمد للمعصية ألبتة .

(٣) سورة هود : الآية ٤٧ .

(٤) موصوف (غير) أى عمل عملا غير صالح قال الشريف الرضى : ومع هذه القراءة لا شبهة فى رجوع معنى الكلام إلى الابن دون سؤال نوح . وقد قوى الشريف هذه القراءة وساق عليها شواهد من كلام العرب .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهو على خلاف الأصل فتعينت القراءة الثانية ، والهاء فى قوله : (إنه) ضمير والضمير لابد وأن يكون عائداً إلى مذكور سابق والمذكور السابق هاهنا إما السؤال وإما الإبن لايجوز عوده إلى الإبن لأن الإبن لا يكون عملا غير صالح بل ذا عمل غير صالح ، فيقتضى الإضمار ، وإنه خلاف الأصل . فثبت أن الضمير عائد إلى السؤال فثبت أن ذلك كان عملا غير صالح .

والجواب عن الأول أن المفسرين اختلفوا فى هذا الابن على ثلاثة أقوال ، **القول الأول** : فالأكثرون على أنه كان ابنا له لصلبه وهو الأقوى لقوله تعالى ﴿ ونَادَى نُوحٌ ابْنَه ﴾ ثم اختلفوا فمنهم من قال ليس من أهلك الذين وعدتك أن أنجيهم معك ، وقيل : ليس من أهل دينك وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك وعكرمة وميمون بن مهران ، **القول الثانى** : إنه كان ابن امرأته إلا أنه لاختلاطه بأبنائه وأهل بيته أطلق عليه لفظ الابن ، كما أن إبليس لاختلاطه بالملائكة أطلق عليه اسم الملك . ويدل عليه قوله : ﴿ إنّ ابْنِى مِنْ أَهْلِى ﴾ ولم يقل منى ، ويروى ذلك عن الباقين . **القول الثالث** : أنه ولد على فراشه لغير رشدة [(١)] ، وهو المروى عن الحسن ومجاهد وابن جريج وعبيد بن عمير ، وهذان القولان ضعيفان ، لقوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ آبْنَهُ ﴾ والثالث أضعف لأنه يجب تنزيه منصب الأنبياء عن مثل هذه الفضيحة .

وعن **الشبهة الثانية** : أنا لانسلم أنه دعا لابنه مطلقا ، بل يشترط الإيمان لا يقال : فلم قال الله تعالى : ﴿ لَاتَسأَلْنِ مَالَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ وقال : ﴿ إنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ وقال نوح : ﴿ رَبِّ

---

(١) يريد أنه كان ولد زنى يقال : هذا ولد رشدة إذا كان لنكاح صحيح كما يقال فى ضده : ولد زنية – بكسر الحرف الأول منهما .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَالَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ﴾ ؟ لأنا نقول : يمتنع أن يكون نوح عليه السلام نهى عن ذلك وإن لم يقع ذلك منه ، كما أن نبينا عليه الصلاة والسلام نهى عن الشرك لقوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ وإن لم يقع ذلك منه ؛ فأما قوله تعالى : ﴿ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ فمعناه أن لا تكون منهم . ولا شك أن وعظه تعالى الذى صرف نوحا عليه السلام عن الجهل . وأما قول نوح عليه السلام : ﴿ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَالَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ ﴾ فلا دلالة فيه على أنه فعل ذلك سلمنا أنه دعا له مطلقا ، ولكن لشفقته الطبيعية قال ما قال ، والعقل لا ينكر الدعاء للكافر ، وإنما يمنع منه الشرع ، فلعله دعاء بمقتضى الطبع إلى أن ورد الشرع بالنهى عنه .

لا يقال : فلم سأل من غير إذن ؟ لأنا نقول : لما لم يجد نصاً مانعا منه تمسك فى الجواز بالإباحة الأصلية ، أو نقول : إنما كان مسلما فى الظاهر ، وكان نوح عليه السلام مأذونا فى الدعاء للمسلمين فدعا له بحكم الظاهر وذلك جائز لقوله عليه السلام : « نحن نحكم بالظاهر » (١)

---

(١) لايعرف بهذا اللفظ الذى ساقه المصنف . ولكن المشهور « أمرت أن أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » ذكره العجلونى فى كشف الخفاء وقال : قال فى اللآلى هو غير ثابت بهذا اللفظ . ولعله مروى بالمعنى من أحاديث صحيحة ذكرتها فى الأقضية من الذهب الإبريز . وقال فى المقاصد : اشتهر بين الأصوليين والفقهاء بل وقع فى شرح النووى لمسلم فى قوله ﷺ : « إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » مانصه : معناه « إنى أمرت بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر » كما قال النبى ﷺ اهـ قال : ولا وجود له فى كتب الحديث المشهورة ولا الأجزاء المنثورة . وجزم الحافظ العراقى بأنه لا أصل له وكذا المزى وغيره . وقال القارى : وممن أنكره الحافظ ابن الملقن فى تخريج أحاديث البيضاوى . وقال الزركشى لايعرف بهذا اللفظ وقد أطال العجلونى الكلام على هذا الحديث فارجع إليه إن شئت .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو نقول : هب أنه أخطأ فى ذلك ، لكن إن قلت : إن ذلك من الكبائر لقوله هذا سؤال ﴿ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾ قلنا : لانسلم والتعويل فى تغيير هذا القسم على كون الإضمار بخلاف الأصل ضعيف لأن الأدلة الدالة على عصمة الأنبياء أقوى من الدليل الدال على كون الإضمار بخلاف الأصل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة إبراهيم عليه السلام

تمسكوا بها من وجوه تسعة :

الشبهة الأولى : قوله تعالى حاكيا عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ قَالَ هَذَا رَبِّى ﴾ (١) فلا يخلو إما أن يقال : إنه قال هذا الكلام فى النظر والاستدلال ، أو بعده . فإن كان الأول كان قطعه بذلك مع تجويزه أن يكون الأمر بخلافه إخبارا عما يجوز المخبر كونه كاذبا فيه . وذلك غير جائز . وإن كان الثانى كان ذلك كذبا قطعا ، بل كفرا قطعا .

والجواب : قيل : إنه من كلام إبراهيم قبل البلوغ . فإنه لما خطر بباله قبيل بلوغه حد التكليف إثبات الصانع فتفكر فرأى النجوم ، فقال : ﴿ هَذَا رَبِّى ﴾ فلما شاهد حركتها قال : لابد أن تكون ربا . وكذا الشمس والقمر فبلغه الله تعالى فى أثناء ذلك حد التكليف ، فقال : ﴿ إِنِّى بَرِىءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٢) وإنما بلغ ذلك فى النجوم والشمس والقمر لما فيه من العلو والنور .

ومنهم من سلم أنه كان كلام إبراهيم بعد البلوغ ثم اختلفوا فمنهم من قال : يجوز أن يكون ذلك كلامه حال اشتغاله بالنظر والاستدلال ثم إنه لم يقل ﴿ هَذَا رَبِّى ﴾ على سبيل الإخبار بل على سبيل الفرض كما أن الواحد منا إذا نظر فى حدوث الأجسام فيقول : الجسم قديم ، لا لأن مراده الإخبار عن قدم الأجسام ، بل لأنه يفرضها قديمة ليظهر ما يؤدى

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٦ .

(٢) سورة الأنعام : الآية ٧٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ذلك الفرض إليه من الفساد . فكذا هاهنا فرض ثم عقبه بما يدل على فساده وهو قوله : ﴿ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ (١) .

ومنهم من قال : تكلم بذلك بعد فراغه من النظر وصيرورته موقناً بالله ، ثم اختلفوا فيه على وجوه خمسة فقيل : تكلم بذلك على معنى أن الأمر كذلك عندهم كما يقول أحدنا للمشبه على سبيل الإنكار إن إلهه جسم متغير . وقال تعالى : ﴿ فَانْظُرْ إِلَى إِلَٰهِكَ ﴾ (٢) أى فى زعمك وقيل : المراد منه الاستفهام ، إلا أنه أسقط حرف الاستفهام استغناء عنه ، وقيل : فى الآية اختصار ، وتقديره يقولون هذا ربى ونظيره : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا ﴾ (٣) أى ويقولان وقيل : أراد إبراهيم أن يبطل قولهم بتعظيم الكواكب . فأوهم من نفسه أنه يعظمها ، ثم عقبه بذكر الاستدلال على بطلانه ، وقيل : إنهم دعوه إلى عبادة النجوم فقال مبينا لهم خطأهم ﴿ هَٰذَا رَبِّي ﴾ الذى تدعوننى إلى عبادته .

والأصح من هذه الأقوال أن ذلك على وجه الاعتبار والاستدلال لا على وجه الإخبار ولذلك فإن الله تعالى لم يذم إبراهيم عليه السلام على ذلك بل ذكره بالمدح والتعظيم وأنه أراه ذلك كى يكون من الموقنين ، هذا هو البحث المشهور فى الآية .

وفيها أبحاث أُخر من حيث أن بعض الملاحدة قال : إن إبراهيم استدل على الشيء بما لايدل عليه . وذكر أشياء لا تصح ، فكان الطعن متوجها ، ونحن نذكر كل واحد من تلك الأسئلة الأربعة عشر مع جوابه .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٦ .

(٢) سورة طه : الآية ٩٧ .

(٣) سورة البقرة : الآية ٢٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السؤال الأول : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً ﴾ (١) دلت الآية على أنه نظر فى حال الكواكب أولا ، ثم القمر ثانيا ، وفى حال الشمس ثالثاً ، ولا شك أن تلك الليلة مسبوقة بنهار ، وأنه كانت الشمس طالعة ، فلم لم ينظر فى النهار السابق على تلك الليلة فى حال الشمس ، بل كان ذلك أولى لأن الشمس أعظم من القمر والكواكب ومتى ثبت أن الأعظم لا يصلح للإلهية فالأضعف أولى ؟ .

جوابه : أن أم إبراهيم لخوفها عليه وضعته فى كهف مظلم فلما تثبت وعقل دنا من الباب فرأى الكوكب ، فقد خطر بباله إثبات الصانع فقال ماقال (٢) وقيل : إنه كان لا يشار له إلى معبود ثم أشير إلى الكواكب فعند ذلك قال ما قال اعتباراً .

السؤال الثانى : حدوث الكوكب معلوم بحركته ، فإنه لما تحرك ثبت أنه لا ينفك عن الحوادث ، فيكون محدثاً فكان ينبغى أن يحتج عند طلوعه على حدوثه ، وأن لا يتوقف على أفوله .

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٦ .

(٢) قال أبو محمد بن حزم : وأما قول إبراهيم إذ رأى الشمس والقمر ﴿ هذا ربى ﴾ فقال قوم إن إبراهيم قال ذلك محققاً أول خروجه من الغار وهذا خرافة موضوعه مكذوبة ظاهرة الافتعال . ومن المحال الممتنع أن يبلغ أحد حد التمييز والتكليف بمثل هذا وهو لم ير قط شمساً ولا قمراً ولاكوكبا . وقد أكذب الله هذا الظن الكاذب بقوله الصادق : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ﴾ – إلى أن قال – والصحيح من ذلك أنه إنما قال ذلك موبخاً لقومه كما قال لهم نحو ذلك فى الكبير من الأصنام ولا فرق – إلى أن قال : وبرهان قولنا هذا أن الله تعالى لم يعاتبه على شىء مما ذكر ولا عنفه على ذلك بل صدقه تعالى بقوله : ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ﴾ فصح أن هذا بخلاف ماوقع لآدم وغيره بل وافق مراد الله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوابه :المراد بالأفول الهوى فى حظيرة الإمكان ؛ فإن حركته تدل على كونه ممكنا لذاته ، والممكن لذاته معدوم لذاته موجود لغيره ، وذلك هو الأفول الحقيقى ، وأيضا فلأنه وإن كان لا يختلف الحال بين الطلوع والغروب فى الحقيقة إلا أن الغروب أدل على عدم الإلٓهية عند العوام فلعله عدل إلى الأفول لهذا الغرض .

السؤال الثالث : أنه لما علم أن حركة الكوكب منتهية إلى الأفول وعلم أن الأفول يدل على الحدوث ثم رأى الشمس والقمر متحركين ، فكان ينبغى أن يقطع عليهما بالحدوث قبل أفولهما ، فلم وقت الأمر فيهما أيضا على الأفول ؟ .

جوابه : إما أن حملنا الأفول على الهوى فى مغرب الإمكان فقد اندفع الإشكال ، وإن حملناه على رعاية ماهو أظهر للعوام فكذلك .

السؤال الرابع : كيف قطع بغيبة الكوكب على حركته ، مع أن المحتمل أن يقال السماء واقفة والأرض متحركة ؟

جوابه – غيبة الكوكب تقتضى حركة جسم مّا فيلزم حدوث ذلك الجسم فيلزم حدوث كل جسم لأن الأجسام كلها متماثلة .

السؤال الخامس : هب أنه استدل بحركة الكوكب على حدوثه فكان ينبغى أن يقول عقيب فراغه من النظر : إنى قضيت بحدوثه لكنه لم يفعل ذلك ، بل جعله نتيجة دليل إثبات الصانع ، فأين إحدى المسألتين من الأخرى ؟ .

جوابه : هذا تنبيه على أن العلم باحتياج المحدث إلى المحدث ضرورى ، فلما كانت هذه المقدمة ضرورية لاجرم حذفها ، واستدل بالدليل الدال على حدوث العالم على ثبوت الصانع ولو لم تكن تلك المقدمة بديهية لكان هذا الاستدلال خطأ قطعاً .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السؤال السادس : هب أنه ثبت لإبراهيم عليه السلام بالدلالة التى ذكرها حدوث الأجسام وثبوت الصانع ، ولكن كيف استنتج منها فساد قوله : ﴿ هذا ربى ﴾ فإن من المحتمل أن الكواكب والسموات محدثة مخلوقة لله تعالى ، ثم إنها تكون محدثة للبشر ، ولما فى هذا العالم على مايذهب إليه المعللون بالوسائط . فإن قلت : كان غرضه من هذا الاستدلال معرفته مقطع الحاجات فلما عرف أن السموات محدثة عرف أنها ليست مقطع الحاجات . قلت : ليس الأمر كذلك ؛ لأن أول الاستدلال فى قوله : ﴿ هذا ربى ﴾ فكان مطلوبه أن الكوكب هل هو الشيء الذى يربيني ويخلقنى ؟ فكان المطلوب هذا لا ماذكرته ، وأيضاً بتقدير أن يكون الأمر كذلك . فلِمَ قال : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ (١) فإن بتقدير أن يكون خالقه هو السماء وجب عليه الاشتغال بشكره والإقبال على طاعته .

جوابه : أن إبراهيم عليه السلام كان على مذهبنا فى مسألة خلق الأفعال ؛ فإنه لما عرف أنها محدثة عرف أنها ممكنة وكان من المعلوم أن المصحح لمقدورية الله تعالى هو الإمكان ، فعرف أن كل ممكن مقدور لله تعالى فإنه لا يقع بقدرة غيره فعرف أن كل ممكن خرج من العدم إلى الوجود فلم يخرج إلا به فعلم أن خالقه ومربيه ليس الفلك ولا الملك بل هو الله الواحد القهار .

السؤال السابع : كيف عرف أنه فطر السموات فإن بقى ههنا احتمال آخر وهو أن الجسم وإن كان محدثا إلا أن هيولاه قديمة . وعلى هذا التقدير لايكون هو تعالى فاطرها . ودليل الحركة لايفيد إلا حدوث الجسم من حيث أنه جسم فأما حدوث الهيولى التى هى جزء ماهية الجسم فلا ؟

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٧٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وجوابه – لما عرف حدوث الجسم عرف لا محالة حدوث هيولاه لأن هيولاه لو كانت قديمة لكانت فى الأزل قابلة للصورة ، لأن قابليتها لها لازمة لماهيتها ، ولو حصلت القابلية فى الأزل لكان المقبول صحيح الوجود ، لأن القابلية نسبية وإمكان النسب متوقف على إمكان المنتسبين لكن المقبول لما كان ممتنع الوجود فى الأزل فكانت القابلية كذلك فكان القابل كذلك فكان الكل كذلك .

السؤال الثامن : كلمة (الذى) موضوعة لتعريف المفرد بقضية معلومة فيما قبل وكونه فاطر السموات والأرض لم يكن معلوما قبل ذلك إنما صار معلوما له فى تلك الحالة فكيف قال ﴿ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ ﴾ .

جوابه : أنه لما عرف أن العالم محدث انضمت إليه مقدمة أخرى ضرورية وهى أن كل محدث له محدث ، فتولد منهما بأن العالم له صانع فصار علمه بافتقار العالم إلى الصانع علما جليا خاليا عن الشبهات ثم لما عرف وجود الصانع عرف أنه لابد من القيام بشكره والاشتغال بطاعته ، فقال بعد ذلك ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ فكان المعنى : وجهت وجهىَ إلى ذلك الشيء [1] الذى ظهر فى عقلى كونه فاطر السموات والأرض .

السؤال التاسع : أنه لم يحتج إلا بحركة الكوكب على حدوثه فمن أين حكم بذلك على السموات والأرض بالحدوث ، والحاجة إلى المحدث ؟

---

(١) التعبير بالشىء هنا فى غاية الجفاء والسماجة ، وماذا كان عليه لو قال – إلى الله الذى – والذى جره إلى هذا التعبير : انسياقه فى هذا البحث الفارغ الذى لاقيمة له فى إثبات عقيدة ولا لزوم له فى تنزيه إبراهيم عليه السلام وكم جرت هذه البحوث المتكلفة إلى فساد فى التفكير وأبعدت عن هدى أصدق المؤمنين رسول الله ﷺ وأصحابه وتابعيهم .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوابه : لما ثبت أن جسما مّا محدث فكل جسم محدث لأن الأجسام كلها متماثلة ، وحكم الشيء حكم مثله ، وفى هذا الموضع تنبيه على أنه تعالى ليس بجسم من وجهين ، **الأول** : أنه لما ثبت حدوث جسم فرع على تلك الدلالة حدوث جسم آخر ، وذلك إنما يصح إذا كانت الأجسام كلها متماثلة وذلك ينفى كونه تعالى جسما ، **الثانى** : أنه تعالى لو كان جسما لقال وجهت وجهى إلى الذى ، فلما قال (للذى) ولم يقل إلى الذى ، دل ذلك على أنه تعالى ليس بجسم .

السؤال العاشر : لم قال : ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ وأى دلالة فى حدوث الأجسام على نفى الشرك ، والظاهر أنه لا يجوز أن يرتب على الدليل مالا يكون لازما منه .

جوابه : لما عرف حدوث الأجسام عرف أن محدثه قادر وعرف أنه إنما صح منه أن يقدر على مقدور لكون ذلك المقدور ممكنا ، فعرف أن الامكان هو المصحح للمقدورية فعرف أنه لو وجد لها آلهان لقدر كل واحد منهما على عين مقدور الآخر لكنه محال ، لما أنه يقتضى وقوع مقدور من قادرين من جهة واحدة وهو محال ، لأنه يلزم استغناؤه بكل واحد منهما عن كل واحد منهما ، ولما كان ذلك باطلا كان القول بحدوث الأجسام نافيا للشرك من هذا الوجه وهذه هى الأدلة الدالة على التوحيد المطلق ونفى الأضداد والأنداد فى الذات والصفات والأفعال وهو الله تعالى واحد فى ذاته لاشريك له وواحد فى صفاته لانظير له وواحد فى الخلق والإيجاد لا شبيه له .

السؤال الحادى عشر : لما جنّ عليه الليل ابتدأ أولا بالنظر فى الكواكب ، فلم لم يبتدىء بالنظر فى نفسه ثم فى أحوال هذا العالم من العناصر ؟ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوابه : الدليل الدال على حدوث الكواكب دال على حدوث العناصر ولا ينعكس فكان الأشتغال بالأعم أهم .

السؤال الثانى عشر : هب أنه عرف أن للعالم صانعاً ، ولكن لم اشتغل بعبادته فى الحال فقال : ﴿ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ .

جوابه : من قال شكر المنعم واجب عقلا فلا إشكال عليه ومن لم يقل به حمل الآية على العلم دون العمل . وفيه اشكال لان العلم أيضاً عمل فقيل السمع أو لم يجز العمل لما جاز لابراهيم هذا العمل .

السؤال الثالث عشر : لم قال : ﴿ وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى ﴾ ولم يقل وجهت قلبى ، مع أنه أولى .

جوابه : هذا يدل على أن الاعتقاد لابد معه فى تزكية الروح من العمل لأن الاعتقاد أرواح والأعمال قوالب ، والكمال لايحصل إلا باجتماعهما وبالله التوفيق .

السؤال الرابع عشر : لم قدم السموات على الأرض ؟

جوابه : أن الإستدلال كان أولا على الكواكب والمجانسة بينها وبين الأفلاك أشد ثم بينها وبين العناصر ، فلذلك قدم السموات لأنها أشرف وأقوى وأعظم فأشكالها أشرف الأشكال وهو المستدير وألوانها أحسن الألوان وهو المستنير فأجسامها أصلب الأجسام فانها السبع الشداد وهى محل البركات . ومنها تنزل الخيرات فلما فاقت السفليات فى هذه الصفات قدمها فى الذكر .

الشبهة الثانية : تمسكوا بقول الله تعالى مخبراً عن إبراهيم لما قال له

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قومه : ﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ قَالَ : بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُم هَذَا ﴾ (١) وإنما عنى بالكبير الصنم وهذا كذب لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذى كسر الأصنام فإضافة كسرها إلى غيره لا يكون إلا كذبا .

الجواب : من وجوه ، **الأول** : أنه كناية عن غير مذكور أى فعله من فعله . و(كبيرهم هذا) ابتداء كلام . وروى عن الكسائى أنه كان يقف عند قوله تعالى ﴿ بل فعله ﴾ ثم يبتدىء ﴿ كبيرهم هذا ﴾ .

الثانى : أنه يجوز ان يكون فيه وقف عند قوله تعالى ﴿ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ ﴾ والمعنى بل فعله كبيرهم وعنى نفسه لأن الإنسان أكبر من كل صنم .

الثالث : أن يكون فى الكلام تقديم وتأخير كأنه قال : بل كبيرهم هذا إن كانوا ينطقون فاسألوهم فيكون إضافة الفعل إلى كبيرهم مشروطة بكونهم ناطقين ، فلما لم يكونوا ناطقين امتنع أن يكونوا فاعلين .

الرابع : أنه ذكر إلزاماً على قولهم ، لأنه لما كان هو الإله الأكبر فكسر خدمه المقربين لديه لا يصدر إلا عنه .

الخامس : قرأ بعضهم (فعله كبيرهم هذا) أى فلعله ، وعلى هذا لا يكون كذبا لدخول حرف الشك (٢) .

---

(١) سورة الأنبياء الآية : ٦٢ .

(٢) قال الإمام أبو محمد بن حزم : إنما هو تقريع لهم وتوبيخ ، كما قال تعالى : ﴿ ذق إنك أنت العزيز الكريم ﴾ وهو فى الحقيقة مهان ذليل معذب فى النار فكلا القولين توبيخ ظن قيلا له على ظنهم أن الأصنام تفعل الخير والشر وعلى ظن المعذب فى نفسه فى الدنيا أنه كريم عزيز . ولم يقل إبراهيم هذا على أنه محقق لأن كبيرهم فعله . إذ الكذب إنما هو الإخبار عن الشيء بخلاف ماهو عليه قصدا إلى تحقيق ذلك .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشبهة الثالثة : قوله تعالى مخبراً عن إبراهيم ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ . فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ (١) والاستدلال من وجهين : **الأول** تمسك بعلم النجوم وهو غير لازم ، **الثانى** : قوله (إنى سقيم) وهو كذب .
الجواب قيل أراد بنظره فى النجوم والقمر والشمس حال كونه طالبا لمعرفة الله تعالى . وقوله : (إنى سقيم) أى لست على يقين من الأمر . ثم لما استدل بأفولها وغروبها على حدوثها وعرف الله تعالى زال ذلك الشك . وهذا ضعيف لأن الله تعالى قال : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ . إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ . إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ (٢) فدل ظاهر الآية على سلامة قلبه من الشك ، ثم ذكر أنه عاتب قومه على عبادة الأصنام . فقال ﴿ ماذا تعبدون ﴾ وسمى عبادتهم بأنها إفك وباطل . قال ﴿ مَاظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٣) وهذا قول عارف بالله تعالى . فالمعتمد أن يقول فى الجواب عن الوجه الأول : لا نسلم أن النظر فى النجوم حرام ، وذلك لأن من اعتقد أن الله أجرى العادة أنه مهما حدث فيما بينهما اتصال مخصوص خلق فى هذا العالم حادثاً مخصوصا واعتقد أن الله تعالى خلق فيها قوى وجعلها أسبابا لحدوث الحوادث فى هذا العالم فعلى هذا التقدير لا نسلم أن النظر فى النجوم حرام سلمنا كونه حراما ، ولكن لعل الله أخبر إبراهيم عليه السلام بأنه مهما طلع النجم الفلانى فانك تمرض . فنظر فى النجوم فلما مرّ به قال إنى سقيم . سلمنا أن ذلك أيضا لم يكن ، لكن من المحتمل أنه حين نظر فى النجوم تشبها بأهل زمانه فى

---

(١) سورة الصافات : الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .
(٢) سورة الصافات : الآيات ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ .
(٣) سورة الصافات : الآية ٨٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الظاهر وحكم أنه سقيم إيهاما على قومه أنه استدل على ذلك بالنجوم وإن كان الأمر فى نفسه ليس كذلك .

وأما الوجه الثانى : فالجواب عنه لا نسلم أنه ماكان سقيما فى تلك الساعة الآتية : كما إذا علمت أنك ستصير محموما وقت الظهر ثم إن واحداً يدعوك إلى الضيافة بحيث تعلم أنه لابد من الجلوس مع القوم وقت الظهر فتقول إنى محموم ، وتعنى به أنى أكون محموما فى ذلك الوقت وأيضا لعله لما كان مشرفا على السقم سمى نفسه سقيما كما فى قوله تعالى ﴿ إِنَّكَ مَيِّت وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ (١) وأيضا أراد إنى سقيم القلب . والمراد ما فى قلبه من الحزن والغم بسبب كفرهم وعنادهم .

فإن قلت : روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ماكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات ، قوله : إنى سقيم ، وقوله : بل فعله كبيرهم هذا ، وقوله لسارة : إنها أختى » (٢) قلت : هذا من أخبار الآحاد فلا يعارض الدليل القطعى الذى ذكرناه ، ثم إن صح حمل على مايكون ظاهره الكذب . فأما قوله لسارة : « إنها أختى » فمعناه أنها أختى فى الدين ، أو نظراً إلى انتسابهما إلى آدم أو إلى سائر الأجداد .

الشبهة الرابعة : تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ ﴾ (٣) الآية انتقل من دليل إلى دليل . وهذا يدل على عجزه عن نصرة دليله الأول . وأيضا فكان من الواجب عليه دفع ذلك السؤال وإزالة تلك الشبهة فكان الإعراض عنه ذنباً عظيما .

---

(١) سورة الزمر : الآية ٣٠ .

(٢) الحديث رواه البخارى ومسلم والإمام أحمد وأبو داود والترمذى عن أبى هريرة .

(٣) سورة البقره : الآية ٢٥٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والجواب : أن الدليل واحد لم ينتقل إلى غيره ، ولكن انتقل من مثال إلى مثال آخر لعلمه بقصور فهم المخاطب عن إدراكه المقصود من المثال الأول . وذلك لأن إبراهيم عليه السلام استدل بحدوث حادث يعلم كل أحد عاقل بالضرورة عجز البشر عنه ؛ وذلك يفيد العلم بوجود الإله تعالى . وهذه القضية الكلية لها جزئيات منها الإحياء والإماتة ، ثم إن نمروذ دعا برجلين . فقتل أحدهما ولم يقتل الآخر ، فقال عند ذلك : ﴿ أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ ﴾ (١) وكان إبراهيم قادراً على أن يقول : لست أعنى به الإحياء والإماتة بهذا التفسير ، وإنما المراد منه شيء آخر لعلم كل أحد بالضرورة عجز البشر عنه ، إلا أنه عليه السلام مبالغة فى الإيضاح عدل عن ذلك المثال إلى آخر وهو طلوع الشمس وغروبها . فظهر أنه لم يحصل منه الانتقال من الإستدلال إلى الاستدلال بل من المثال إلى مثال آخر . ثم هاهنا بحث وهو أن الغرض من هذا الإستدلال إما إثبات الإله للعالم ونفى كون نمروذ إلهاً ، أو نفى كونه شريكا لله تعالى . فإن كان الأول وهو قوله :.﴿ إِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ﴾ (٢) فإن ذلك عين المطلوب ، وله أن يقول : إن الشمس تطلع إما لذاتها أو لا لمؤثر أصلاً فما الدليل على أن الأمر ليس كذلك ؟ فإن البحث ماوقع إلا فيه . وإن كان الغرض هو الثانى وهو أن نمروذ ليس بخالق للعالم فهذا غير جائز لأن نمروذ إن جوز ذلك لم يكن كامل العقل ، لأن العلم بأن هذا الشخص البشرى الذى ماوجد إلا فى هذه الأيام ليس هو الموجد للسموات السبع التى كانت موجودة قبله بألوف ألوف سنين ، وأن العلم

---

(١)،(٢) سورة البقرة : الآية ٢٥٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بأن هذا الشخص العاجز عن التصرف فى هذه السموات والكواكب والبر والبحر ليس هو الموجد لها علم ضرورى ، فمن شك فيها كان مختل العقل ، والمناظرة مع هذا الانسان عبث ، وبعثة الأنبياء إليه أيضاً عبث . وإن كان الغرض هو الثالث ، وهو نفى كونه شريكا لله تعالى ، فإن كان المراد من الشركة فى خالقية السموات والأرض كان أيضا معلوم الفساد بالضرورة فكانت المناظرة فيها عبثاً . وإن كان المراد من الشركة الطاعة بمعنى أن نمروذ كان يدعى أنه يجب عليهم طاعته كما يجب طاعة الله . فهذا مما لا يبطل بالحجة التى ذكرها إبراهيم عليه السلام .

سؤال آخر :وهو أن إبراهيم عليه السلام لما قال ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ (١) فلو قال الخصم : بل أنا آتى بالشمس من المشرق فقل لإلهك جىء بها من المغرب كيف يكون جوابه ؟ .

الجواب : عن البحث الأول أن الخصم كان دهريا منكراً للصانع فاحتج إبراهيم عليه السلام بهذه الحجة فى إثبات الصانع وذلك لأن طلوع الشمس بعد عدمها حادث فلابد من محدث والمحدث ليس أحداً من البشر فلابد لهذه الأجسام من إله .

واعلم : أنه إنما انتقل عن الإحياء والإماتة إلى طلوع الشمس وغروبها لأن أشرف مافى العالم السفلى هو الإنسان وأشرف مافى العالم العلوى هو الشمس ، فذكر من دلائل الآفاق أحوال الشمس ، ومن دلائل الأنفس أحوال الحياة والموت .

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٥٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والجواب : عن البحث الثانى أن الخصم لو طالبه بذلك لكان من الواجب فى حكم الله تعالى أن يأتى بالشمس من المغرب تقريراً لحجة إبراهيم عليه السلام .

ولقائل أن يقول : هذا غير واجب . لأن لإبراهيم عليه السلام أن يقول : طلوع الشمس حادث ، فلابد له من محدث . وذلك المحدث ليس من البشر ؛ فلابد من إله . فثبت أن طلوع الشمس إنما حدث بقدرة الله تعالى . ومن المعلوم بالضرورة أن القادر على تحريك الشمس من اليمين إلى الشمال قادر على تحريكها من الشمال إلى اليمين . فلما كان الله تعالى قادرا على أن يأتى بالشمس من المشرق كان قادرا على أن يأتى بها أيضا من المغرب . فثبت أن إلهى قادر على الكل . وأما أنت فلو كنت إلها لكنت أيضا قادراً على الكل فلما عجزت عن الكل ثبت أنك لست بإله . ومتى اندفعت معارضة الخصم بهذه الأدلة العقلية لم يلزم من عدم إتيان الله تعالى بالشمس من المغرب القدح فى دليل إبراهيم عليه السلام .

الشبهة الخامسة : تمسكوا بقوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى ﴾ (١) الآية وهذا يدل على أنه لم يكن موقنا بقدرة الله على إحياء الأموات .

والجواب : من وجوه ، **الأول** : يحتمل أن يقال : وقع ذلك قبل النبوة . وقبلها لما وجب عليه الاستدلال فى معرفة الله تعالى وجب عليه الاستدلال أيضا فى أمر المعاد . فإن قلت : أليس إنه لا يتم علمه بالمبدأ

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلا إذا عرفه قادرا على كل المقدورات حصل العلم بكونه عالما بكل المعلومات ، ومتى عرفه كذلك عرفه قادرا على إحياء الموتى ؟ قلت : لا يلزم من مجرد العلم بكونه تعالى عالما بكل المعلومات قادرا على كل المقدورات حصول العلم بكونه تعالى قادرا على الإحياء لاحتمال أن يقال : هذه الأجزاء إنما تقبل التركيب الحيوانى والحياة بطريق خاص وهو التولد . فأما بغير ذلك الطريق فهو ممتنع لذاته . فلا يلزم من عدم القدرة عليه قدح فى قولنا إنه قادر على كل الممكنات .

فإن قلت : لو كان حصول الحياة فى ذلك الجسم ممتنعا لما حصل فيه ألبتة ، فلما حصل ثبت أنه ممكن لذاته فيندرج تحت قدرة الله تعالى .

قلت : لعل الخصم يقول : إنه ممكن بطريق واحد ، وفيما عدا ذلك ممتنع ، وأيضا فهب أن الدليل الذى ذكرت يصح فى بيان كون الأجزاء قابلة للحياة إلا أن إبراهيم عليه السلام ما أراد إثبات هذه المقدمة بهذه الدلالة العقلية بل أراد إثباتها بالمشاهدة ، فإنه لا يجب على المستدل أن يستدل بدليل معين ، كيف وفى الرجوع إلى المشاهدة هاهنا مزيد فائدة لأن الحسى أقوى فى ذلك من الإستدلال ، **الثانى** : يحتمل أن يقال : وقع ذلك عند وصول الوحى إليه ، فإن القوم كما يحتاجون إلى المعجزة فى معرفة رسالته ، فالرسول لابد له أيضا من معجز ليعرف به نبوة نفسه ، فقوله ﴿ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ ﴾ [١] معناه أو لم تؤمن بأنك رسول الله ؟ ﴿ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ [٢] على كونى رسولا من قبلك لا من قبل الشيطان .

---

(١)،(٢) سورة البقرة : الآية ٢٦٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثالث : يحتمل أن يقال : وقع ذلك بعد النبوة ولكنه من الله تعالى لمعرفة شيء آخر ، كما يحكى أن الله تعالى أو حى إليه « إنى اتخذت عبداً من عبادى خليلا وعلامته أنه لو طلب منى إحياء الميت فإنى أفعله إكراما له » فأراد إبراهيم عليه السلام أن يتعرف أن ذلك الخليل هل هو هو ؟ فسأل عن ذلك ، وكان المعنى ولكن ليطمئن قلبى على كونى خليلا لك ومخصوصا من عندك بهذا الشرف .

الرابع : أن يكون المراد ليطمئن قلبى على قربك على الإحياء بالمشاهدة ، فإن البرهان إذا تأيد بالمشاهدة صار أقوى وأعم .

الخامس : أنه عليه السلام لما أمر بذبح الولد ضعف قلبه ، فكأنه قال إلهى أمرتنى بإماتة الحى وهو على شاق ، فإن أكرمتنى بإحياء الميت قوى قلبى فأقدر حينئذ على ذلك التكليف ، فقوله : ﴿ وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ المراد ليطمئن قلبى على قربى منك واختصاصى بك . فأقوى بوجدان ذلك الإكرام على امتثال ذلك الالتزام .

السادس : أن الخصم لما قال لإبراهيم عليه السلام : أنت تزعم أن ربك يحيى ويميت فاسأله أن يحيى لنا ميتا وإلا قتلتك فقال إبراهيم عليه السلام : (أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى) ويكون معنى قوله : (وَلَكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ زوال الخوف والأمن من القتل .

السابع : أن الخصم لما قال : (أَنَا أُحْيِى وَأُمِيتُ) لم يشتغل إبراهيم عليه السلام بالكشف عن فساد ما قاله ، ولكن انتقل إلى وجه آخر ثم بعد الفراغ عن ذلك المقصود عاد إلى شرح فساد ما قاله الخصم : فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى ﴾ ليعرف بهذا الكافر أن الإحياء والإماتة اللذين استدللت بهما على وجود الإله كيف يكون ؟ فمعنى قوله : (ليطمئن) أى يطمئن قلبى على صحة الدليل واندفاع تلك المعارضة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثامن : وهو على لسان أهل الإشارة : أن حياة القلب بالاشتغال بذكر الله وموته بالاشتغال بغير الله تعالى . فقال : ﴿ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِى الْمَوْتَى ﴾ أى القلوب الميتة ﴿ قَالَ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَي ﴾ ولكن ليحصل الذوق بتحصيل الاستقرار والطمأنينة . فقال : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ ﴾ فأمر بقطع العلاقة عن هذه الهيئة المركبة من هذه الطبائع الأربعة تنبيها على أن الحياة التامة الروحانية لا تحصل إلا بعد مفارقة هذا الجسد .

التاسع : أن المراد منه طلب الرؤية فى الدنيا ، وهو الذى سأل موسى عليه السلام بقوله : ﴿ أَرِنِى أَنْظُرْ إِلَيْكَ ﴾ وسأله محمد أرنا الأشياء كما هو إلا أنه راعى الأدب فعبر بالمسبب عن السبب فان سبب حياة القلب ليس إلا الرؤية التى هى الكشف التام ، فكان طلب الأثر طلبا للمؤثر .

العاشر : أنه عليه السلام كان أب هذه الأمة والوالد يكون مشفقا على الولد ، والمشفق بسوء الظن مولع ، فلما علم أن كثرة بنيه عاصيا خطر بباله : إنى إن كنت شفيعا للعصاة فهل تقبل شفاعتى يوم القيامة ؟، فسأل عن إحياء الميت فى الدنيا فقيل : أو لم تؤمن بقدرتنا عليه ؟ فقال : بلى ولكن ليطمئن قلبى على كونى مقبول الشفاعة فى حق أمة محمد عليه الصلاة والسلام وإذا كان هو كذلك كان محمد عليه الصلاة والسلام أولى به ، فلذلك قال : « شفاعتى لأهل الكبائر من امتى » (١) وهذا الجواب تذكيرى .

---

(١) هذا الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى عن أنس وعن ابن عباس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحادى عشر : لعله عليه السلام أمر بتبليغ الرسالة ففكر فقال : لعل الخصوم يطالبوننى بمعجزات غريبة فسأل الله تعالى عن هذه الغريبة . فقال ﴿ أَوَ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ على أنك تجيبنى فى كل ما أطلب . وبالجملة قوله ﴿ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ﴾ غير متعلق فى الآية على شىء معين فلك أن تصرفه إلى أى شىء شئت سوى الإيمان .

الشبهة السادسة : قالوا : إن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه . وأبوه كان كافراً والاستغفار للكافر غير جائز . فثبت أن إبراهيم عليه السلام فعل مالا يجوز فعله إنما قلنا : إنما استغفر لأبيه لقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام : ﴿ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى ﴾ (١) وقوله ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِى إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (٢) وأما أن أباه كان كافرا فذلك بنص القرآن وبالاجماع . وأما ان الاستغفار للكافر لا يجوز لوجهين **الأول** قوله تعالى ﴿ مَاكَانَ لِلنَّبِىِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) ، فثبت بهذه المقدمات أن إبراهيم عليه السلام فعل مالا يجوز **الثانى** قوله تعالى فى سورة الممتحنة : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِى إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ ﴾ (٤) فأمر بالتأسى به إلا فى هذا الفعل فوجب أن يكون ذلك معصية منه .

---

(١) سورة : مريم الآية ٤٧ .
(٢) سورة الشعراء : الآية ٨٦ .
(٣) سورة التوبة : الآية ١١٣ .
(٤) الآية : ٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والجواب : لانزاع إلا فى قولكم الاستغفار لا يجوز . والكلام عليه من وجوه **الأول** أن القطع عليه أن الله تعالى يعذب الكافر لا يعرف إلا بالسمع ، فلعل إبراهيم عليه السلام لم يجد فى شرعه مايدل على القطع بعذاب الله تعالى الكافر . فلا جرم استغفر لأبيه .

الثانى : أن الاستغفار قد يكون بمعنى الاستبطاء كما فى قوله تعالى ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ ﴾ (١) .

الثالث : أنه عليه السلام إنما استغفر لأبيه لأنه كان يرجو منه الإيمان ، فلما أيس من ذلك ترك الاستغفار . ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لله تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾ (٢) وأما قوله : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ فليس فى لفظ النبى عموم ، لما ثبت فى أصول الفقه أن الاسم المفرد المحلى بالألف واللام لا يقتضى العموم فإذا حملنا النبى على رسولنا عليه الصلاة والسلام لم يلزم أن يتناول إبراهيم عليه السلام ، وأما الآية الثانية فهى على أنه لا يجوز التأسى به فى ذلك الاستغفار ، فلم يدل على أن الاستغفار لم يكن جائزا له . ولكنا نحمل الاستغفار الذى أتى به على استبطاء العقاب ، أو تخفيفه ، أو على أنه ما كان عالما بكيفية الأحوال .

فائدة : اختلف المفسرون فى الموعدة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ﴾ (٣) فقيل : وعد الأب ابنه بالإيمان ، وقيل :

---

(١) راجعت كتب اللغة وكتب التفسير ومنها تفسير الفخر الرازى . فلم أجد هذا المعنى للاستغفار أصلا ، بل كل معنى الاستغفار يدور على التغطية والعفو والصفح خصوصا فى آية الجاثية (قل للذين آمنوا يغفروا – ٢٤١) . « كما ورد بالطبعة السابقة » .

(٢)،(٣) سورة التوبة الآية : ١١٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وعد الابن أباه بالاستغفار . والأول أولى على قولنا إنه لايجوز الاستغفار للكافر ، لأن وعد الابن أباه بالاستغفار لوعد الأب ابنه بالإيمان وإذا كان وجود هذا الوعد واجبا ووجود الوعد الثانى غير واجب كان حمل اللفظ على الوعد الأول أولى .

الشبهة السابعة : تمسكوا بقوله تعالى ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ (١) والدعاء طلب وطلب الحاصل ممتنع لقوله تعالى ﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾ (٢) ولولا جواز ذلك عليه لما طلب من الله ذلك ولقوله تعالى ﴿ وَالَّذِى أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِى خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٣) والاستدلال فيه أن الآية مشعرة بأنه غير قاطع بكونه مغفوراً له ، وهى تصريح بوقوع الخطيئة منه .

والجواب : لانزاع بين الأمة أنه لايجوز الكفر على الأنبياء بعد نبوتهم الا عند شرذمة من الخوارج (٤) فلا اعتبار بخلافهم ، فكانت هذه الآيات مؤولة بإجماع الأمة ، فوجب حملها على هضم النفس وكسرها وإظهار الإنابة والابتهال .

الشبهة الثامنة : قالوا : إنه طلب من الله أن يجنب أولاده عن عبادة الأصنام ، وما أجيب إليه . فكان كسراً من منصبه .

الجواب : أن المفسرين حملوا هذا الدعاء على من أعلمه الله أنه يؤمن ولا يعبد الأصنام وتخصيص العام غير بعيد .

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٢٨ .

(٢) سورة إبراهيم : الآية ٣٥ .

(٣) سورة الشعراء : الآية ٨٢ .

(٤) وكذا لا يجوز الكفر قبل نبوتهم أيضا كما لا يخفى فليتأمل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشبهة التاسعة : تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ (١) . والبحث فى الآية من وجوه :

الأول : أنه قدم الطعام إلى الملائكة مع علمه أنهم لا يأكلون .

الثانى : لم خافهم مع علمه بكونهم معصومين ؟ فان قلت : السبب فى هذين أنه ماكان عالماً بكونهم من الملائكة ، قلت : فلم صدقهم فى ادعاء الملائكة من غير دليل ؟ .

الثالث : أنه تعالى وصفه بالمجادلة . فقال : ﴿ يُجَادِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ (٢) ثم قال : ﴿ يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا ﴾ (٣) وهذا يدل على أن مجادلته مع الملائكة غير جائزة .

والجواب : أن ذلك لو كان ذنباً لعوتب عليه ولاستغفر إبراهيم عليه السلام منه كيف وقد مدحه الله تعالى على ذلك فقال : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ (٤) فوصفه بهذه الصفات التى ليست وراءها منزلة فى باب الرفعة . فكيف يجوز تخطئته فيما جعله الله تعالى سببا للمدح العظيم ؟ وأما قوله : كيف صدقهم فى ادعاء الملائكة من غير دليل فنقول ليس فى الآية أنه صدق من غير دليل ، وإذا كان كذلك كان الدليل المذكور على عصمة إبراهيم عليه السلام دليلا على أنه إنما

---

(١) سورة هود : الآية ٦٩ .

(٢) سورة هود : الآية ٧٤ .

(٣) سورة هود : الآية ٧٦ .

(٤) سورة هود : الآية ٧٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

صدقهم فى تلك الدعوى بالدليل . ويقال انهم دعوا الله بإحياء العجل الذى كان ذبحه وشواه فعاد حيا ، وأما المجادلة فإنها غير مقصودة على المخاصمة فقد تكون بمعنى المسألة قال الله تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِى تُجَادِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ (١) يعنى تسألك فكأن إبراهيم عليه السلام أخذ يبحث كيفية العذاب وأنه عام لهم أو خاص بالبعض ، فسمى ذلك جدالا لما كان فيه من المراجعة ، وقيل : معنى (تجادلنا) تسألنا عن قوم لوط أن يؤخر عذابهم رجاء أن يؤمنوا فأخبره الله تعالى بأن المصلحة فى إهلا كهم وأن كلمة العذاب حقت عليهم .

لا يقال : أما أن يقال أنه كان مأذونا أو غير مأذون ، فإن كان الثانى كان إقدامه عليه ذنبا لأنا نقول لعله لم يكن مأذونا فيه شرعا إلا أنه بحكم أن الأصل فى الأشياء الإباحة اعتقد جواز تلك المجادلة فإنه لما نهى عنه سكت عنه .

* * *

(١) سورة المجادلة : الآية ١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة يعقوب عليه السلام

وفيها شبهات

الشبهة الأولى : قالوا : لم رجح يعقوب عليه السلام يوسف على إخوته فى التقريب والمحبة مع علمه إفضاء ذلك الترجيح إلى الحسد والمفاسد العظيمة ؟ .

الجواب : من وجهين : **الأول** لا نسلم أنه رجح يوسف على إخوته فى الإكرام ، بل كان راجحا فى المحبة وميل الطبع وذلك غير مقدور له فلا يكون مكلفا بتركه . **الثانى** : هب أنه عليه السلام رجحه فى الإكرام لكن لا نسلم علمه بأداء ذلك الترجيح إلى المفسدة ، فلعله رأى من سداد إخوته وجميل ظاهرهم ما غلب على ظنه أن ترجيحه لا يفضى إلى شيء من المفاسد فإن الحسد وإن كان راسخا فى الطبع إلا أن كثيراً من الناس يحترزون منه ويجتنبونه .

الشبهة الثانية : أن إخوة يوسف وصفوا أباهم بالضلال بقوله : (إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) (١) . **الجواب** ليس المراد بالضلال عن الدين بالإجماع بل المراد العدول عن الصواب .

فإن قلت : لما وصفوه بذلك فقد قدحوا فى عصمته واعتقدوا أنه غير مصيب فى أحكامه ومن اعتقد فى الرسل ذلك كفر فيلزم القول بكفر إخوة يوسف **قلت** الحكم بالإسلام والكفر شرعى فلعل ذلك لم يكن كفراً فى دينهم ، أو يقال مرادهم وصف يعقوب بالغلو فى الحب . وذلك غير مقدور له . فلم يكن وصفهم أباهم بذلك قدحا فى عصمته .

---

(١) سورة يوسف : الآية ٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشبهة الثالثة : فلم أرسل يوسف مع إخوته مع خوفه عليه منهم بقوله : تعالى : ﴿ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلُهُ الذِّئْبُ ﴾ (١) وهل هذا إلا تغريرا ؟

الجواب : لايمتنع أن يعقوب عليه السلام لما رأى فى بنيه من الإيمان والعهود والاجتهاد فى حفظ يوسف ظن السلامة وربما ظن أنه لو لم يرسله معهم مع مبالغتهم فى إظهار الحب لاعتقدوا فى يعقوب عليه السلام أنه يتهمهم على يوسف ويصير ذلك سببا للوحشة العظيمة فلهذه الدعاوى بعثه معهم .

الشبهة الرابعة : لم أسرف يعقوب عليه السلام فى الحزن والبكاء حتى ابيضت عيناه ومن شأن الأنبياء التجلد والتصبر ؟ .

الجواب : التجلد على المصائب وكظم الحزن مندوب وليس بواجب ، وترك المندوب ليس بمعصية ، على أن يعقوب عليه السلام إنما أبدل من الحزن اليسير من الكثير ، وكان مايعتبر عليه أكثر وأوسع مما أظهره .

الشبهة الخامسة : أن يعقوب عليه السلام كان يعلم برؤيا يوسف أن أمره يفضى إلى العاقبة الحسنة فى الدنيا والدين ، فلِمَ لم يتسل بذلك على حزنه ؟

الجواب أن علمه بذلك لا يدفع الحزن الحاصل بسبب المفارقة ، على أن يوسف عليه السلام كان حين رأى تلك الرؤيا صبيا فلا جرم لم يقطع يعقوب عليه السلام بصحته .

---

(١) سورة يوسف : الآية ١٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة يوسف عليه السلام
وفيها شبهات

الشبهة الأولى : أنه صبر على الرق ولم يبين الحرية التى فيه وذلك معصية **الجواب** من وجوه : **الأول** : فلعله لم يكن نبيا فى تلك الحالة ، ولما خاف على نفسه القتل جاز أن يصبر على الرق . ومن ذهب إلى هذا الوجه حمل قوله تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا ﴾ (١) على وقت آخر . **الثانى** أن إظهار الحرية أمر يجوز أن يختلف باختلاف الشرائع ، فلعله أمر بالسكوت عنه امتحانا ، كما امتحن أبويه بنمروذ والذبح (٢) **الثالث** لعله عليه السلام أخبرهم بذلك إلا أنهم لم يلتفتوا إليه .

الشبهة الثانية : تمسكوا بقوله تعالى حاكيا عن يوسف وامرأة العزيز : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ . وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ (٣) .

الجواب : قال القاضى أبو طاهر الطوسى رحمه الله تعالى : شهد ببراءة يوسف من الذنب كل من له تعلق بتلك الواقعة من زوج وحاكم ونسوة وملك وادعى يوسف ذلك واعترف له خصمه بصدق ماقاله مرتين ، وشهد بذلك رب العالمين الذى هو أصدق القائلين ، واعترف إبليس فكيف يلتفت إلى قول هؤلاء الحشوية ؟! أما شهادة الزوج فقوله

---

(١) سورة يوسف : الآية ١٥ .
(٢) أى ذبح ولده إسماعيل لا إسحاق .
(٣) سورة يوسف : الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ . يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴾ (١) وأما شهادة الحاكم فقوله : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ (٢) ﴿ إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ ﴾ (٣) وأما شهادة النسوة فقولهن : ﴿ حَاشَ لِلَّهِ مَاعَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴾ (٤) وأما شهادة الملك فقوله : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾ (٥) وأما ادعاء يوسف عليه السلام ذلك فقوله : ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ﴾ (٦) وقوله : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ (٧) وقوله : ﴿ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ (٨) وأما اعتراف الخصم فقولها للنسوة : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ (٩) وقولها : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (١٠) وأما شهادة رب العالمين فقوله : ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ (١١) وأما اعتراف إبليس بذلك فقوله تعالى حكاية عنه : ﴿ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١٢) فبين أنه يغوى الكل إلا المخلصين ويوسف من المخلصين لقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ

---

(١) سورة يوسف : الآيتان ٢٧ ، ٢٨ .
(٢) سورة يوسف : الآية ٢٦ .
(٣) سورة يوسف : الآية ٢٨ .
(٤) سورة يوسف : الآية ٥١ .
(٥) سورة يوسف : الآية ٥٦ .
(٦) سورة يوسف : الآية ٢٧ .
(٧) سورة يوسف : الآية ٣٣ .
(٨) سورة يوسف : الآية ٥٢ .
(٩) سورة يوسف : الآية ٣٢ .
(١٠) سورة يوسف : الآية ٥١ .
(١١) سورة يوسف : الآية ٢٤ .
(١٢) سورة الحجر : الآيتان ٣٩ ، ٤٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ (١) فأية شبهة تبقى مع هذه الشهادات فى براءة يوسف عن الذنوب . ثم قال القاضى : وهؤلاء الطاعنون فى يوسف إن كانوا من حزب الله فليقبلوا قوله ، وان كانوا من حزب الشيطان فيجب أن لا يتركوا قوله ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ وإذا ظهرت هذه الجملة فلنذكر معنى الآية فنقول :

الهم : فى اللغة جاء لمعانٍ أربعة **الأول** العزم على الفعل لقوله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ (٢) أى أرادوا ذلك وعزموا عليه **الثانى** خطور الشىء بالبال قال الله تعالى : ﴿ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا ﴾ (٣) فإنما أراد الله تعالى الفشل خطر ببالهم ولو كان المراد هاهنا العزم لما صح أن يكون الله وليا لهم ، لأن العزم على المعصية معصية ويدل عليه أيضاً قول كعب بن زهير :

فكم فيهم من سيد متوسع ومن فاعل للخير قد هم أو عزم

الثالث : أن يستعمل بمعنى المقاربة يقولون هم بكذا أى كاد يفعله قال ذو الرمة :

أقول لمسعود بجرعاء مالك وقد هم دمعى أن يلج أوائله

والدمع لا يجوز عليها العزم وإنما أراد أنه كاد وقارب .

الرابع : الشهوة وميل الطباع لأن الإنسان قد يقول فيما يشتهيه هذا من همى فثبت أن الهم مستعمل فى هذه المعانى . فان حملناه على العزم ففيه وجهان : **الأول** أن الهم فى ظاهر الآية معلق بذاته وذاتها . وذلك غير جائز لأن الذوات لاتراد فلا بد من ترك هذا الظاهر وتعليق الهم بشىء غير الذات . وإذا ثبت هذا فنقول : ليس تعليقه ببعض الأمور

---

(١) سورة يوسف : الآية ٢٤ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١١ .

(٣) سورة آل عمران الآية : ١٢٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أولى من تعليقه بالباقى إلا للدليل فأما همها فكان متعلقا بالفاحشة دون سائر الأمور وذلك للنص والإجماع . أما النص فقوله تعالى ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (١) وقوله : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (٢) وقوله تعالى حاكيا عنها : ﴿ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (٣) وفى موضع آخر : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ (٤) وأما الإجماع فهو أن المفسرين اتفقوا على أنها همت بالمعصية والفاحشة . وأما همه فقد دللنا على أنه لا يجوز أن يكون متعلقا بالفاحشة وليس فى ظاهر الآية ما يقتضيه فلا جرم علقناه بدفعه إياها عن نفسه كما يقول القائل : لقد كنت هممت بفلان أى بأن أوقع به ضربا .

لا يقال : فأى فائدة على هذا التأويل فى قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَنْ رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ والدفع لها عن نفسه طاعة لا يصرف البرهان عنه لأنا نقول يجوز أن يكون لما هم بدفعها وضربها أرى برهانا على أنه لو قدم على ماهم به أهلكه أهلها وقتلوه ، وأنها تدعى عليه المراودة على القبيح وتنسبه إلى أنه دعاها إلى نفسه وضربها لامتناعها منه . فأخبره الله تعالى أنه صرف بالبرهان عنه السوء والفحشاء اللذين هما القتل والمراودة وظن القبح واعتقاده فيه . لا يقال : فهذا يقتضى أن يكون جواب لفظة (لولا)

---

(١) سورة يوسف : الآية ٣٠ .
(٢) سورة يوسف : الآية ٢٣ .
(٣) سورة يوسف : الآية ٥١ .
(٤) سورة يوسف : الآية ٣٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

متقدما عليها ويكون التقدير لولا أن رأى برهان ربه لهم بقربها ، وتقدم جواب (لولا) غير جائز . لأنا نقول : لا نسلم أن تقدم جواب (لولا) غير جائز وسيأتى تقريره ، سلمنا ذلك ولكن لاحاجة بنا إليه فى هذا المقام ، لأن العزم على الضرب والهم قد وقع إلا أنه انصرف عن فعله بسبب البرهان . وتقدير الكلام : ولقد همت به وهم بدفعها لولا أن رأى برهان ربه لفعل ذلك . والجواب محذوف مضمر . **الوجه الثانى** : فى حمل الهم على العزم أن يحمل الكلام على التقديم والتأخير ، والتقدير : ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها ويجرى ذلك مجرى قولك : قد كنت هلكت لولا أن تداركته ، وقد استبعد الزجاج . وعلى بن عيسى هذا الجواب من وجهين :

الأول : أنه لايجوز تقدم جواب لولا **الثانى** جوابه يكون باللام كقوله : ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ ﴾ (١) .

والجواب : انا لا نسلم انه لايجوز التقديم ، والدليل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا ﴾ (٢) وأيضاً فلو لم يجعل التقديم على (لولا) جوابا لها لكان جوابها محذوفا . وإذا دار الأمر بين أن يكون جوابا محذوفا وبين أن يكون متقدما عليها لا شك أن التقديم أولى .

فإن قلت : فأى فائدة فى قوله : ﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ إذا لم يكن هناك هم ؟ **قلت** الفائدة فيه الإخبار على أن ترك الهم

---

(١) سورة الصافات : الآيتان ١٤٣ ، ١٤٤ .

(٢) سورة القصص : الآية ١٠ .

به وإجابتها إلى ملتمسها لم يكن من حيث كان غير راغب فى النساء لعجز لكنه ترك ذلك لله وفى الله طلبا لثوابه وهربا من أليم عقابه .

فإن قلت : فما البرهان الذى رآه يوسف عليه السلام ؟

قلت : فيه وجوه ثمانية : **الأول** : أنه حجة الله فى تحريم الزنا والعلم بما على الزانى من العقاب قاله محمد بن كعب .

الثانى : ما آتاه الله من آداب أنبيائه من العفاف وصيانة النفس عن الأرجاس .

الثالث : رأى مكتوبا فى سقف البيت ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (١) .

الرابع : عن الصادق النبوة المانعة من ارتكاب الفواحش .

الخامس : عن زين العابدين كان فى ذلك البيت صنم فألقت المرأة ثوبا عليه وقالت أستحى منه . فقال يوسف : تستحى من الصنم فأنا أحق أن أستحى من الواحد القهار .

السادس : أنه سمع قائلا يقول يا ابن يعقوب لاتكن كالطير فإذا زنا ذهب ريشه .

السابع : سمع قائلا يقول : أنت مكتوب فى الأنبياء وتعمل عمل السفهاء .

الثامن : عن ابن عباس رأى صورة الملك ، وقيل : صورة يعقوب عليه السلام عاضا على أنامله .

فإن قلت : لو كان البرهان عبارة عن أنه رأى يعقوب عاضاً على أصبعه أو نادته الملائكة بالزجر لاقتضى ذلك الإلجاء وصار منافيا للتكليف ، ولما استحق يوسف عليه السلام بالبعد عن ذلك الفعل مدحا ولاثناءاً ولا ثوابا .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٣٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قلت : أليس إن المعتزلة قالوا فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَاكَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ (١) إن شيئا منها لا يوجب الإلجاء ، وإذا كان كذلك فكيف يلزم من مشاهدة يعقوب وسماع صوت الملائكة حصول الإلجاء .

الشبهة الثالثة : تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (٢) **الجواب** من وجهين **الأول** أنه أراد الدعاء والمنازعة ولم يرد العزم على المعصية ، وهو لا يبرىء نفسه عما لا يقوى عنه طباع البشر **الثانى** هو أن هذا من كلام المرأة لا من كلام يوسف عليه السلام بدليل أن هذا مسوق إلى كلام المرأة فإنه تعالى قال : ﴿ وَقَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ . ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ (٣) الكلام على كلام المرأة . فقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ من كلام المرأة لا من كلام يوسف . والمكنى عنه فى قوله (لم أخنه) هو يوسف . وهو غائب فى السجن ، ولم أقل فيه لما سئلت عن قصتى إلا الحق ، وليس فى القرآن مايدل على أن ذلك من قول يوسف عليه السلام . ومهما جعل ذلك من قول يوسف عليه السلام احتيج إلى حذف طويل من رجوع الرسول إلى يوسف عليه السلام ، وإخباره بما قاله له حتى يجيبه يوسف عليه السلام ، ثم رجوع الرسول إلى الملك ثانيا وإخباره إياه بمقالة يوسف عليه السلام حتى يقول

---

(١) سورة : الأنعام الآية ١١١ .
(٢) سورة يوسف : الآية ٥٣ .
(٣) سورة يوسف : الآيات ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملك : ﴿ آئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ﴾ (١) وهذا محال لا يجوز مثله فى القرآن ولافى الشعر . ولو جعلنا ذلك من قول يوسف عليه السلام لم يوجب ذلك إلحاق الفاحشة به ، بل هو أدل دليل على براءة ساحته وذلك لأنه قال : ﴿ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴾ (٢) ولا خيانة أعظم من الهم بامرأته والقعود منها مقعد الرجل من امرأته .

الشبهة الرابعة : أنهم سجنوا يوسف عليه السلام ، وذلك معصية بالاتفاق وأنه عليه السلام قال : ﴿ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِى إِليهِ ﴾ (٣) فيدل ذلك على محبته لتلك المعصية ، ومحبتها معصية .

الجواب : من وجهين : **الأول** المراد من الأحب الأخف والأسهل فهذا كمن يخير بين شيئين مكروهين جداً ، فيقول إن كذا أحب إلى ، أى أخف . **الثانى** : أن توطين النفس على تحمل مشقة السجن أحب إلى من مواقعتى المعصية . فأما قوله : ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٤) فهو تصريح بأن شيئا من الطاعات لا يتم إلا بمعونة الله تعالى ولطفه .

الشبهة الخامسة : كيف يجوز على يوسف مع نبوته أن يعول على غير الله فى الخلاص من السجن فى قوله للذى كان معه ﴿ آذْكُرْنِى عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ (٤) حتى وردت الروايات أنه إنما طال مقامه فى الحبس لأنه عول

---

(١) سورة يوسف : الآية ٥٤ .

(٢) سورة يوسف : الآية ٥٢ .

(٣)،(٤) سورة يوسف : الآية ٣٣ .

(٥) سورة يوسف : الآية ٤٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

على غير الله ؟ **الجواب** أن الدنيا دار الأسباب ، فالتمسك بالأسباب لا ينافى حقيقة التوكل .

الشبهة السادسة : ما الحكمة فى طلب أخيه من إخوته ، ثم حبسه عن الرجوع إلى أبيه مع علمه بما يلحق أباه من الحزن ؟ وهل هذا إلا ضرر بأبيه ؟ .

الجواب : إنما فعل ذلك بوحى من الله تعالى إليه زيادة فى امتحان أبيه . والمراد من قوله : ﴿ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ (١) ليس الخداع والكذب بل اللطف والاحتيال .

الشبهة السابعة : فما معنى جعل السقاية فى رحل أخيه ؟ .

الجواب : أما جعل السقاية فى رحل أخيه فالغرض منه التسبب إلى احتباس أخيه عنده . ويجوز أن يكون ذلك بأمر الله تعالى . وروى أنه أعلم أخاه بذلك ليجعله طريقا إلى التمسك به . وعلى هذا الوجه لا يكون ذلك سببا لإدخال الغم فى قلب أخيه .

فان قلت : فلا أقل من أن يكون ذلك سببا لتعريض أخيه لتهمة السرقة ؟ **قلت** لا نسلم فان وجود السقاية فى رحل أخيه يحتمل وجوها كثيرة ، فمن صرفه إلى السرقة كان هو المقصر . وأما نداء المنادى – أنهم سارقون – ففيه ثلاثة أوجه :

الأول : أنه ماكان بأمره عليه السلام ، بل نادى بذلك واحد من القوم لما فقدوا الصواع .

الثانى : هب أنه كان بأمره لكنه لم يناد بأنهم سرقوا الصواع بل نادى بأنهم سارقون ، فلعل المراد أنهم سرقوا يوسف من أبيه .

---

(١) سورة يوسف : الآية ٦١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثالث : أن الكلام خارج على معنى الاستفهام ، وإن كان ظاهره ظاهر الخبر كأنه قال : أإنكم لسارقون ؟ فأسقط همزة الاستفهام كما أسقطت فى قوله : ﴿ هَذَا رَبِّى ﴾ .

الشبهة الثامنة : مابال يوسف لم يعلم أباه خبره حتى تسكن نفسه ويزول حزنه ؟ **والجواب** لعله امتنع عنه بأمر الله تشديدا على يعقوب عليه السلام .

الشبهة التاسعة : قال الله تعالى : ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً ﴾ (١) وكيف رضى بأن يسجدوا له والسجود لا يكون إلا لله ، وكيف رضى باستخدام الأبوين ؟ .

الجواب : المعنى خروا لأجله سجدا لله .

فإن قلت : هذا التأويل يفسده قوله تعالى : ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَاىَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾ (٢) **قلت** لا نسلم ، فإن تأويل رؤياه : بلوغه أرفع المنازل ، فلما رأى أبويه على أشرف الحالات فى الدارين كان ذلك مصدقا لرؤياه المتقدمة .

الشبهة العاشرة : مامعنى قوله تعالى حكاية عنه : ﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِى ﴾ (٣) **جوابه** أن النزغ الشيطانى كان منهم إليه لامنه إليهم ، وهو كقول القائل : كان بينى وبين فلان شر ، وإن كان من أحدهما دون الثانى .

الشبهة الحادية عشرة : مامعنى قول عليه السلام ﴿ آجْعَلْنِى عَلَى

---

(١)،(٢)،(٣) سورة يوسف : الآية ١٠٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خَزَائِنِ الْأَرْضِ ﴾ (١) وكيف يجوز أن يطلب الولاية من قبل الظالم ؟ **جوابه** إنما التمس بتمكينه من خزائن الأرض ليحكم فيها بالعدل لأنه بسبب نبوته كان مستحقا لذلك وللمستحق أن يتوصل إلى حقه بأى طريق كان .

* * *

(١) سورة يوسف : الآية ٥٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة أيوب عليه السلام

حكى الله تعالى أنه قال : ﴿ مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ (١) والعذاب لا يكون إلا جزاءاً كالعقاب ، فدل على كونه مذنبا ، وروى جمع من المفسرين أن الله تعالى إنما عاقبه بذلك البلاء لترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

جوابه : لا نسلم أن العذاب لا يكون إلا جزاءاً . ولهذا يقال للظالم المبتدىء بالظلم : إنه يعذب الناس فأما إضافة ذلك إلى الشيطان فنقول : إنه عليه السلام ما أضاف المرض إلى الشيطان ، وإنما أضاف إليه ماكان يشعر به من وسوسته وتذكيره له مما كان فيه من النعم والعافية ودعائه له إلى التضجر ، ولأنه كان يوسوس إلى قومه بأن يستقذروه ، لما كان عليه من الأمراض البشعة المنظر ، وأيضا فان الله تعالى مدحه فى آخر الآية بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ (٢) فلو كان أول الآية دالا على كونه مذنبا لكان مدحه عقيب ذلك موهما أنه مدحه على ذنبه وهو غير جائز . والله الموفق .

* * *

---

(١) سورة صٓ : الآية ٤١ .

(٢) سورة صٓ : الآية ٤٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة شعيب عليه السلام
وفيها شبهات ثلاث

الشبهة الأولى : مامعنى قوله ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ (١) والشيء لايعطف على نفسه لاسيما بالحرف الذى يقتضى التراخى وهو (ثم) **جوابه** من وجوه ثلاثة :

الأول : أن يكون المعنى اجعلوا المغفرة غرضكم الذى تتوجهون إليه ، ثم توصلوا إليها بالتوبة . فالمغفرة أول فى الطلب وآخر فى السبب .

الثانى : استغفروا ربكم أى سلوه للمؤمنين المغفرة بالمعونة عليها ، ثم توبوا إليه ؛ والشيء لا يعطف لأن المسألة للتوفيق ينبغى أن يكون قبل التوبة .

الثالث : وهو أن للتخلص من ضرر الذنب طريقين : **أحدهما** : مغفرته تعالى وعونه . وذلك إنما يكون عند تقارب الذنب **والثانى** التوبة الماحية للذنب ، فكأنه عليه السلام أرسل إلى طلب التخلص من تلك المعاصى بجميع الطرق الممكنة .

الشبهة الثانية : مامعنى قول شعيب عليه السلام لموسى عليه السلام : ﴿ إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ ﴾ (٢) فكيف يجوز فى الصداق التخيير وأى فائدة للبنت فيما شرطه هو لنفسه وليس يعود عليها من ذلك نفع ؟ .

---

(١) سورة هود : الآية ٩٠ .
(٢) سورة القصص : الآية ٢٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوابه : من وجهين : **الأول** يجوز أن تكون الغنم كانت لشعيب عليه السلام وكانت الفائدة لاستئجار من يرعاها عائدة إليه إلا أنه عوض ابنته عن قيمة رعيتها ، فيكون ذلك رعيا لها ، وأما التخيير فلم يكن إلا فيما زاد على ثماني حجج ، وذلك الزائد لم يكن من الصداق ، ويجوز أيضا أن تكون الغنم للبنت وكان الأب متوليا لأمرها ، قابضا لصداقها . **الثانى** : يجوز أن يكون من شريعته العقد على التراضى من غير صداق معين ، ويكون قوله : ﴿ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ ﴾ على غير وجه الصداق .

الشبهة الثالثة : قوله : ﴿ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (١) الآية . فاعترف شعيب على أنه تعالى نجاه من ملتهم التى هى الكفر ولا يعود فيها والعائد إلى الشيء هو من كان فيه ، فيرجع إليه بعد مفارقته وكذلك سبيل النجاة .

جوابه : العود إلى الشيء قد يستعمل فيما لم يكن فيه قط ، فإن الله تعالى سمى القيامة معاداً وإن لم تكن فيها ، وكذلك النجاة قد تستعمل فيما لم تكن فيه ، فان السالم مما ابتلى به غيره قد يقول : الحمد لله الذى نجانا مما ابتلى به فلانا . **وجه آخر** وهو أن الكناية فى قوله : ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا ﴾ (٢) يرجع إلى الملة ، ويجوز أن يكون شعيب قبل الوحى مكلفا بتلك الملة ، ثم صارت منسوخة ، فدعوه إليها مرة أخرى فأجابهم شعيب عليه السلام بأنه ليس له أن يعود إليها بعد نسخها .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٨٨ .
(٢) سورة الأعراف : الآية ٨٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة موسى عليه السلام
فيها شبهات ست

الشبهة الأولى : تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ ﴾ (١) فإن ذلك القبطى إما أن يكون مستحقا للقتل أو لا . فإن كان الأول فلم قال : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ (٢) و : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى ﴾ (٣) الآية و : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ (٤) ؟ وإن كان الثانى ، كان عاصيا فى قتله .

جوابه : يحتمل أن يقال : إنه لكفره كان مستحقا للقتل وإنه لم يكن لكن موسى قتله خطأ ، وأنه لم يقصد إلا تخليص الذى من شيعته من ذلك القبطى . فتأدى به ذلك إلى القتل من غير قصد .

أما الآيات فمن جوز الصغيرة حملها عليه فإن الاستغفار والتوبة تجب من الصغيرة كما تجب من الكبيرة ومن أباها فلم يحملها عليه ، وأما قوله : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ ففيه وجهان :

الأول : أن الله تعالى ندبه إلى تأخير قتل أولئك الكفار إلى حال القدرة فلما قتل فقد ترك المندوب ، فقوله : ﴿ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ معناه إقدامى على ترك المندوب من عمل الشيطان .

الثانى : أن يكون المراد أن عمل المقتول عمل الشيطان ،

---

(١)،(٢) سورة القصص : الآية ١٥ .

(٣) سورة القصص : الآية ١٦ .

(٤) سورة الشعراء : الآية ٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والمراد بيان كونه مخالفا الله تعالى مستحقا للقتل ، ويكون قوله : (هذا) إشارة إلى المقتول بمعنى أنه من جند الشيطان وحزبه ، يقال : فلان من عمل الشيطان أى من أصحابه . فأما قوله : ﴿ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْلِى ﴾ فعلى نهج قول آدم : ﴿ ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا ﴾ والمراد أحد الوجهين إما على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والاعتراف بالتقصير عن القيام بحقوقه وإن لم يكن هناك ذنب قط ، أو من حيث حرم نفسه الثواب على فعل المندوب ، وأما قوله : (فاغفرلى) فالمراد اقبل منى هذه الطاعة والانقطاع إليك . وأما قوله : ﴿ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِين ﴾ فلم يقل : إنى صرت بذلك ضالا ولكن فرعون لما ادعى أنه كان كافراً إلى حال القتل نفى عن نفسه كونه كافراً فى ذلك الوقت فاعترف بأنه كان ضالا أى متحيراً لا يدرى مايجب عليه أن يفعله وما يريده فى ذلك والله أعلم .

الشبهة الثانية : كيف لموسى عليه السلام أن يقول لرجل من شيعته يستصرخه : ﴿ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُبِينٌ ﴾ (١) ؟ **جوابه** إن قوم موسى عليه السلام كانوا غلاظا جفاة . ألا ترى إلى قولهم بعد مشاهدة الآيات ﴿ آجعَلْ لَنَا إِلٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ (٢) وكان المراد ذلك .

الشبهة الثالثة : لما قال الله تعالى : ﴿ أَنِ آئْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) فلم قال فى جوابه : ﴿ إِنِّى أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ ﴾ (٤) وهذا استغناء عن الرسالة ؟ .

---

(١) سورة القصص : الآية ١٨ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ١٣٨ .

(٣) سورة الشعراء : الآية ١٠ .

(٤) سورة الشعراء : الآيتات ١٢ ، ١٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوابه : ليس هذا استغناء عن الرسالة ، ولكنه إذن فى أن يسأل ضم أخيه إليه فى الرسالة على ماذكره الله تعالى فى قوله فى سورة طه ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ (١) إلى قوله ﴿ وَاجْعَلْ لِى وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ﴾ (٢) فقال الله تعالى ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى ﴾ (٣) وكان فى ذلك السؤال مأذونا فاندفع السؤال .

الشبهة الرابعة : كيف جاز لموسى أن يأمر السحرة بإلقاء الحبال والعصى وذلك سحر وتلبيس وكفر ، والأمر بمثله لا يجوز ؟

جوابه : ذلك الأمر كان مشروطاً والتقدير : ألقوا ما أنتم ملقون إن كنتم محقين ، كما فى قوله تعالى ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ (٤) أى إن كنتم قادرين ، وأيضاً لما تعين ذلك طريقاً إلى كشف الشبهة صار جائزاً .

الشبهة الخامسة : (فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً) (٥) أو ليس خوفه يقتضى شكه فيما أتى به ؟ **جوابه** لعله خاف لأنه رأى من قوة التلبيس ما أشفق عنده من وقوع الشبهة على بعض الناس فآمنه الله منه وبين أن حجته تتضح للقوم بقوله تعالى ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴾ (٦) .

الشبهة السادسة : ﴿ وَأَلْقَى الْأَلْوَاحَ ﴾ (٧) الآية فلا يخلو إما

---

(١) الآية : ٩ .
(٢) الآية : ٢٩ .
(٣) الآية : ٣٦ .
(٤) سورة البقرة : الآية ٢٣ .
(٥) سورة طه : الآية ٦٧ .
(٦) سورة طه : الآية ٦٨ .
(٧) سورة الأعراف : الآية ١٥٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن يكون قد صدر الذنب عن هارون عليه السلام مااستحق به ذلك التأديب أو لم يصدر عنه فإن صدر عنه فقد صدر الذنب عن هارون عليه السلام وإن لم يصدر عنه فصدر عن موسى عليه السلام ، وأيضاً فلأن هرون نهى موسى فى قوله ﴿ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي ﴾ (١) فإن كان موسى عليه السلام مصيباً فيما فعله كان هارون عاصيا فى منعه عن فعل الصواب . وإن كان هارون عليه السلام مصيباً فى ذلك المنع كان موسى عليه السلام عاصيا فى ذلك الفعل .

جوابه : أما من جوز الصغائر عليهم فقد حمل الواقعة عليه وزال السؤال . وأما من أباها فله **وجهان** : **الأول** أن موسى أقبل وهو غضبان على قومه ، فأخذ برأس أخيه وجره إليه كما يفعل الإنسان بنفسه فى مثل ذلك الغضب ، فإن المفكر الغضبان قد يعض على شفتيه ويقلب أصابعه ويقبض على لحيته ، فأجرى موسى عليه السلام أخاه مجرى نفسه لأنه كان شريكه فصنع به مايصنع الرجل بنفسه فى حال الفكر والغضب . وأما قوله ﴿ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِي ﴾ فلا يمتنع أن يكون هارون خاف أن يتوهم بنو إسرائيل بسوء ظنهم أنه منكر عليه معاتب له ، ثم أخذ فى شرح القصة ، وقال فى موضع آخر ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ (٢) وفى موضع آخر : ﴿ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي ﴾ (٣) . **الثانى** أن بنى إسرائيل كانوا فى نهاية سوء الظن بموسى حتى أن هارون عليه السلام غاب عنهم غيبة فقالوا لموسى : أنت

---

(١)،(٢) سورة طه : الآية ٩٤ .

(٣) سورة الأعراف : الآية ١٥٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قتلته فلما واعد الله موسى عليه السلام ثلاثين ليلة وأتمها بعشر وكتب له فى الألواح من كل شيء رجع فرأى فى قومه ما رأى فأخذ برأس أخيه ليدنيه فيتفحص كيفية الواقعة فخاف هارون أن يسبق إلى قلوبهم مالا أصل له ، فقال إشفاقا على موسى عليه السلام ﴿ لَاتَأْخُذْ بِلِحْيَتِى ﴾ لئلا يظن القوم بك مالا يليق .

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ قصة موسى والخضر عليهما السلام ﴾
﴿ وفيها بحثان ﴾

البحث الأول مايتعلق بموسى عليه السلام وهو من وجوه :

الأول أنه عليه السلام قال ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ (١) و ﴿ شَيْئاً نُكْراً ﴾ (٢) مع أن ذلك الفعل فى نفسه ما كان كذلك ، والحكم على ماليس بمنكر بأنه منكر خطأ ، فكان مخطئاً .

الثانى أنه نعت نفس الغلام بأنها زاكية مع أنها لم تكن كذلك .

الثالث قوله ﴿ لَاتُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ ﴾ (٣) وعندنا النسيان غير جائز على الأنبياء .

البحث الثانى مايتعلق بالخضر ، وهو من وجوه : **الأول** قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ (٤) والسفينة البحرية تساوى المال العظيم فكيف يسمى مالكها المسكين **الثانى** قوله ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ ﴾ (٥) ومن كان وراءهم فقد سلموا منه ، وإنما كان خوفهم مما كان قدامهم ، **الثالث** قوله ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْراً ﴾ (٦) فكيف استباح دم الغلام لأجل الخشية مع أن الخشية لاتقتضى علما ولا يقينا ؟

---

(١) سورة الكهف : الآية ٧١ .
(٢) سورة الكهف : الآية ٧٤ .
(٣) سورة الكهف : الآية ٧٣ .
(٤،٥) سورة الكهف : الآية ٧٩ .
(٦) سورة الكهف : الآية ٨٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجواب عن الأول : أما قوله ﴿ شَيْئاً إِمْراً ﴾ أى عجبا ، وقيل : منكرا ، فإن حملناه على الأول فلا إشكال ؛ وإن حملناه على الثانى كان الجواب عنه وعن (نكرا) واحدا . وفيه وجوه : **الأول** أن ظاهره منكر ومن يشاهده ينكره قبل أن يعرف علته **الثانى** أن يكون حذف حرف الشرط فكأنه قال : إن كنت قتلته ظالما فقد جئت شيئاً نكرا **الثالث** أن يكون قوله (نكرا) أى عجيبا ، فإنهم يقولون فيما يستغربونه ويجهلون علته : إنه نكر ومنكر .

وعن الثانى : أنه وصف النفس بكونها زاكية على سبيل الاستفهام لاعلى سبيل الإخبار ، وأيضاً فلأنه تكلم بما ذكره إجراءاً للأمر على ظاهره وذلك جائز لقوله عليه السلام « نحن نحكم بالظاهر » (١) .

وعن الثالث أنا لايجوز عليه النسيان فيما يتعلق بالتبليغ والشرع وأما فى غيره فجائز .

وعن الرابع أن تلك السفينة كانت ملكا لقوم ، فلعل كل واحد منهم كان قليل المال جداً .

وعن الخامس أن لفظ الوراء يعبر به عن الخلف والقدام فهى هاهنا

---

(١) ليس هذا اللفظ معروفا ، والمشهور « أمرت أن أحكم بالظاهر » قال السيوطى فى اللآلى : هو غير ثابت بهذا اللفظ . ولعله مروى بالمعنى من أحاديث صحيحة . وقال السخاوى فى المقاصد الحسنة : اشتهر بين الأصوليين والفقهاء ، بل وقع فى شرح مسلم للنووى فى قوله « انى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم » مانصه : معناه أنى أمرت بالحكم بالظاهر والله يتولى السرائر كما قال النبى ﷺ ولا وجود له فى كتب الحديث المشهورة . وجزم العراقى والمزى بأنه لا أصل له .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بمعنى القدام ، كما فى قوله تعالى ﴿ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ ﴾ (١) يعنى من قدامهم .

وعن السادس : لعل الله أوحى إليه بقتل الشخص فلذلك أقدم عليه (٢) .

* * *

(١) سورة الجاثيه : الآية ١٠ .

(٢) غريب جداً أن يغيب عن المصنف أن ذلك كله إنما كان بوحى من الله بعد ماورد من النص الصريح على ذلك فى قوله ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى ﴾ فهل بعد هذا تصريح بأن الخضر إنما كان نبيا يتلقى الوحى بما فعل من عند الله تعالى . وإنما كانت هذه الوقائع بهذه الصورة لأنها درس لموسى عليه السلام يتعلم منه التمهل والتروى . فإن سبب ذلك كما جاء فى صحيح البخارى وغيره أن موسى عليه السلام قام خطيبا فى بنى اسرائيل فسئل من أعلم الناس ؟ فقال : أنا ولم يرد العلم إلى الله فعاتبه الله فى ذلك ، وأمره أن يلحق بعبده الخضر ... الخ القصة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة داود عليه السلام
وفيها شبهتان

الشبهة الأولى : قوله : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ (١) الآيات . فاعلم أن الذى أقطع به عدم دلالة هذه الآية على صدور الكبيرة من داود عليه السلام . وبيانه من وجوه .

الأول : أن الذى حكاه المفسرون عن داود وهو أنه عشق امرأة أوريا فاحتال حتى قتل زوجها فتزوجها لا يليق بالأنبياء بل لو وصف به أفسق الملوك لكان منكراً .

الثانى : أن الدخول فى دم أوريا أعظم من التزوج بامرأته فكيف ترك الله الذنب الأعظم واقتصر على ذكر الأخف ؟ .

الثالث : أن السورة من أولها إلى آخرها فى محاجة منكرى النبوة فكيف يلائمها القدح فى بعض أكابر الأنبياء بهذا الفسق القبيح ؟ .

الرابع : أن الله تعالى وصف داود عليه السلام فى ابتداء القصة بأوصاف حميدة . وذلك ينافى ماذكروه فى الحكاية بيان وصفه تعالى بأوصاف حميدة من وجوه :

الأول : قوله تعالى : **ذا الأيد** (٢) والأيد القوة ولا شك أن المراد منه القوة فى الدين ، لأن القوة فى غير الدين كانت موجودة فى الملوك الكفار ، وما استحقوا بها مدحا ، إنما المستحق للمدح هو القوة فى الدين .

---

(١) سورة صٓ : الآية ٢١ .
(٢) سورة صٓ : الآية ١٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثانى : أنه لما ثبت كونه موصوفاً بالقوة فى الدين ولا معنى للقوة فى الدين إلا العزم الشديد على أداء الواجبات واجتناب المحظورات فكان داود عليه السلام من أولى العزم . وقد قال الله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أولو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (١) وأمر محمداً عليه الصلاة والسلام بالاقتداء بأولى العزم ، فإذا كان داود عليه السلام من أولى العزم ماكان قد أمر محمداً بالاقتداء بداود عليه السلام . وهذه درجة لاتوازيها درجة .

الثالث : أنه لما وصف بالقوة فأى قوة لمن لم يملك نفسه عن الفجور والقتل ؟

الرابع : أنه وصفه بكونه أوَّابا والأوّاب هو الرجاع والرجاع إلى ذكر الله يستحيل أن يكون مواظبا على أعظم الكبائر .

الخامس : قال . ﴿ سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ ﴾ (٢) الآية ، أفترى أنه سخر له ذلك ليتخذه وسيلة إلى القتل والزنا ؟ وقيل : إنه كان محرما عليه صيد كل شيء فكانت الطيور تأمنه ، فكيف يجوز أن تأمنه الطير ولا يأمنه المسلم على زوجته ؟ .

السادس : قوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ (٣) ومحال أن يكون المراد منه شدة ملكه بالمال والعسكر مع كونه مسلما من طريق الدنيا لا من طريق الدين لأن ذلك سبيل الملوك الكفرة ، لأن قوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ عام فى الدين والدنيا .

السابع : قوله : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ (٤) والحكمة اسم جامع

---

(١) سورة الأحقاف : الآية ٣٥ .

(٢) سورة صٓ : الآية ١٨ .

(٣)،(٤) سورة صٓ : الآية ٢٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لكلماينبغى علما وعملا ، فكيف يجوز أن يقول الله ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ مع إصراره على مايستنكفه أخبث الشياطين من مزاحمة أفضل أصحابه وأحبائه فى الزوج والمنكوح .

فبان أن الله تعالى لما وصفه بهذه الصفة كان القول بما ذكروه من الفاحشة باطلا ، إذ ماقبل تلك الصفة هى هذه الممادح ، ومابعدها قوله تعالى ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً ﴾ (١) وهذا أيضا من أجل الممادح فلو توسطها مايدل على أفحش المقابح لجرى ذلك مجرى قول من يقول فلان عظيم الدرجة فى الدين علىّ الرتبة فى طاعة الله ، يقتل ويزنى ويلوط وقد جعله الله تعالى خليفة لنفسه وصوبه فى احكامه ، وأمر أكابر الأنبياء بالاقتداء به فكما أن هذا الكلام لا يليق بعاقل فكذا هاهنا .

الثامن : أنه قال بعد تمام القصة ﴿ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ ﴾ (٢) وترتيب الحكم على الوصف مشعر بكون الوصف علة لذلك الحكم فعلى ماذكروه يلزم أن يكون تفويض خلافة الأرض إليه بسبب إقدامه على القتل والفسق ، وذلك مما لا يقول به عاقل .

التاسع : أنه قال فى حق الرسل ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ . وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ (٣) وكل ذلك ينافى وصفهم بالإقدام على الكبيرة والفاحشة .

العاشر : أنهم ذكروا فى روايتهم أن داود عليه السلام تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب قال « رب إن آبائى قد ذهبوا بالخير كله

---

(١)،(٢) سورة صٓ : الآية ٢٦ .

(٣) سورة صٓ : الآيتان ٤٦ ، ٤٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأوحى إليه : إنهم إنما وجدوا ذلك لأنهم لما ابتلوا صبروا فسأل الابتلاء فأوحى الله إليه : إنك لمبتلى فى يوم كذا فاحترس ثم وقع فيما وقع فيه إلى آخر القصة ، فدل أول حكايتهم على أن الله تعالى ابتلاه بالبلاء الذى يزيد فى منقبته ، فكيف يليق العشق ، والقتل بذلك ؟

الحادى عشر : قول داود عليه السلام ﴿ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّاهُمْ ﴾ (١) استثنى الذين آمنوا من هذا البغى فإن كان هو الفاعل لذلك وجب أن يكون حاكما على نفسه بعدم الإيمان .

الثانى عشر : أن قوله تعالى ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٢) لايلائم العشق والقتل .

فثبت بهذه الوجوه براءة نبى الله داود عما نسبه إليه الجهال .

فان قلت : إن كثيراً من المحدثين روى هذه الحكاية (٣) .

---

(١) سورة صٓ : الآية ٢٤ .

(٢) سورة صٓ : الآية ٤٠ .

(٣) أما هذه الدعوى الباطلة فهى مردودة على من ينسب ذلك إلى أرباب الحديث فإن أحداً من أصحاب الكتب الصحيحة لم يذكرها ولم يعرج عليها فليس من الإنصاف العلمى أن يتهم المحدثون بهذه التهمة الشنيعة ، فإن ذلك إنما يصدر من قلب موغور عليهم مملوء بالضغينة لهم ، والقصة إنما ذكرها المفسرون عن الإسرائيليات . قال الحافظ ابن كثير فى تفسيره قد ذكر المفسرون ههنا قصة أكثرها مأخوذ عن الإسرائيليات ، ولم يثبت فيها عن المعصوم حديث يجب اتباعه . ولكن روى ابن أبى حاتم هنا حديثا لا يصح سنده لأنه من رواية يزيد الرقاشى عن أنس . ويزيد وإن كان من الصالحين ولكنه ضعيف الحديث جدا عند الأئمة اهـ . فانظر أيها المنصف إلى كلام أهل العلم الذين لا يلقون القول جزافا ولا يقدمون آراءهم وأهواءهم على العلم بدعوى خبر الآحاد وأنه لا يفيد إلا الظن وأمثال هذه الدعاوى الواهنة ولعل المصنف أراد بلفظ المحدثين – بضم الميم وسكون الحاء =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قلت : هذه الدلائل الباهرة لما أبطلت قولهم وجب القطع بفسادها . فالعجب اتفاق الناس على أن خبر الواحد لا يفيد إلا الظن ، والظن إنما ينتفع به فى العمليات وهذه المسألة ليست من العمليات ، فصارت روايتهم ساقطة العبرة من كل الوجوه . وعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور أن عليا رضى الله عنه قال : « من حدثكم بحديث داود عليه السلام على مايرويه القصاص جلدته مائتين وستين وهو حد الفرية على الأنبياء » وروى أن واحدا ذكر ذلك الخبر عند عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال : إن كانت القصة على مافى كتاب الله تعالى فما ينبغى ان نلتمس خلافها ، وإن كان على ماذكرت وكف الله عنها ستراً على نبيه فيما ينبغى اظهارها عليه ، فقال عمر : سماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت الشمس عليه .

فإذا ثبت هذا فلنبحث أنه هل فى الآية مايدل على صدور الصغيرة عنه أم لا ؟ فنقول : قال كثير من أهل الحق قول الله ﴿ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ أخبر عن جماعة أنهم تسوروا قصره قاصدين قتله والإساءة

= وفتح الدال . وقال الإمام أبو محمد بن حزم – بعد أن ساق الآيات – : وهذا قول صادق صحيح لايدل على شىء مما قاله المستهزئون الكاذبون المتعلقون بخرافات ولدها اليهود ، وإنما كان ذلك الخصم قوما من بنى آدم بلا شك مختصمين فى نعاج من الغنم على الحقيقة بينهم . بغى أحدهما على الآخر على نص الآية . ومن قال : إنهم كانوا ملائكة معرضين بأمر النساء فقد كذب على الله عز وجل ، وقوله مالم يقل وزاد فى القرآن ماليس فيه وكذب على الله عز وجل ، وأقر على نفسه الخبيثة أنه كذب الملائكة ، لأن الله تعالى يقول ﴿ هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ فقال هو : لم يكونوا قط خصمين ، ولا بغى بعضهما على بعض ، ولا كان قط لأحدهما تسع وتسعون نعجة ولا كان للآخر نعجة واحدة ، ولا قال له : (أكفلنيها) فاعجبوا لما يقحم فيه أهل الباطل أنفسهم ، ونعوذ بالله من الخذلان . ثم كل ذلك بلا دليل ، بل الدعوى المجردة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلى أهله فدخلوا قصره فى وقت ظنوا أنه غافل . فلما رآهم داود عليه السلام خافهم لما تقرر فى العرف أنه لا يتسور أحد دار غيره بغير أمره إلا لسوء يريده من قتله أو لمكاره على أهله أو سرقة ماله خصوصاً إذا كان صاحب الدار شخصا معظما فلما رأوه مستيقظا انتقض عليهم التدبير فاقترح بعضهم عند فزعه خصومة لا أصل لها زاعما أنهم قصدوه لأجلها دون ماتوهمه فقالا : ﴿ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَي بَعْضٍ ﴾ ثم ادعى أحدهما على الآخر مالا . فقال : ﴿ إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ﴾ (١) الآية فقال داود عليه السلام : ﴿ لَقَدْ ظَلَمَكَ ﴾ الآية ثم قال الله تعالى : ﴿ فَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ ﴾ (٢) أى امتحناه . لكنه لم يعمل على ظاهر الحال ، ولم ينتقم منهم مع كونه ذا أيد وقوة وسلطان وقدرة بل صار مستغفراً للقوم الذين قصدوه وطالبا من الله تعالى العفو عنهم وذلك أن الله تعالى لم يقل إنه أذنب ولا إنه استغفر لنفسه فإن المستغفر قد يستغفر لنفسه تارة ولغيره أخرى . قال الله تعالى فى وصف الملائكة : ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٣) وقال أولاد يعقوب لوالدهم ﴿ يَا أَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ (٤) ثم قال الله تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ﴾ (٥) معنى غفرنا لأجل حرمة داود لأولئك وقبلنا شفاعته فى التجاوز عنهم فهذا الذى قلناه مما ينطبق عليه لفظ الكتاب العزيز ، فلا يحتاج فيه إلى المجاز من حمل الخصمين على الملكين ، وادعاؤهما الخصومة على التمسك لا على التحقيق

---

(١) سورة صٓ : الآية ٢٣ .

(٢) سورة صٓ : الآية ٢٤ .

(٣) سورة غافر : الآية ٧ .

(٤) سورة يوسف : الآية ٩٧ .

(٥) سورة صٓ : الآية ٢٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحمل النعجة على المرأة ويناسبه أمر رسولنا عليه الصلاة والسلام بالاقتداء به فى قوله : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (١) وتأدب به عليه الصلاة والسلام يوم أحد لما هشمت ثناياه فقال : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » ويناسبه ما حصل عقيبه من المنصب العظيم وهو خلافة الله فى أرضه .

ووجه آخر : لعل الاستغفار إنما كان لأن القوم لما تسوروا ظن داود عليه السلام بهم أنهم يقصدون قتله فلما لم يظهر الأمر كما ظن ندم على ذلك الظن ، فكان الاستغفار عليه ، أو لأنه لما هضم نفسه ولم يؤدبهم ولم ينتقم منهم مع القدرة التامة دخله شيء من العجب على كمال حلمه ، فكان الاستغفار منه لأن العجب من المهلكات . فهذا قول من يقول لادلالة فى الآية على شيء من الزلات وهو الحسن عندى .

القول الثانى : وهو قول من سلم دلالتها على الصغيرة فلهم فيها وجوه خمسة ، **الأول** : أنه عليه السلام كان عالما بحسن امرأة أوريا فلما سمع أنه قتل قلّ غمه لميل طبعه إلى نكاح زوجته ، فعوتب عليه بنزول الملكين ، **الثانى** : أن أهل زمان داود عليه السلام كان يسأل بعضهم بعضا أن ينزل عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته . وكان ذلك جائزاً فيما بينهم ، فاتفق أن عين داود عليه السلام وقعت على امرأة أوريا ، فأحبها فسأله النزول عنها فاستحى أن يرده ، ففعل فتزوجها وهى أم سليمان عليه السلام ، فقيل له : إنك مع ارتفاع قدرك وكثرة نسائك لم يكن ينبغى لك أن تسأل رجلا ليست له إلا امرأة واحدة النزول عنها ، بل كان الواجب قهر نفسك .

---

(١) سورة الأحقاف : الآية ٣٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثالث : أن أوريا خطبها ثم خطبها داود عليه السلام فآثره أهلها فكان ذنبه أنه خطب على خطبة المؤمن مع كثرة نسائه .

الرابع : أن داود عليه السلام كان مشتغلا بعبادته فأتاه رجل وامرأة يتحاكمان فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها ليحكم لها أو عليها ، وذلك نظر مباح فمالت نفسه إليها ميل الخلقة ففصل بينهما وعاد إلى عبادته فشغله الفكر فى أمرها عن بعض نوافله فعوتب .

الخامس : أن الصغيرة منه إنما كانت بالعجلة فى الحكم قبل التثبت ، وكان يجب عليه لما سمع الدعوى من أحد الخصمين أن يسأل الآخر عما عنده فيها ولا يقضى عليه قبل المسألة .

والمجيب بهذا الجواب قال : إن الفزع من دخولهما عليه فى غير وقت العادة أنساه التثبت والتحفظ والقائلون بهذا القول حملوا التحاكم على ضرب المثال ، وإلا فيلزم إقدام الملك على الكذب وحملوا النعاج على النسوة ، وكل ذلك عدول عن الظاهر من غير دليل .

فإن قيل : هب أنه لادلالة فى الآية على الذنب ألبتة ولكن مسارعته إلى تصديق أحد الخصمين على حكمه يكون الآخر ظالما غير جائز ، **قلنا** : ليس فى القرآن أنه صدقه من غير ظهور الحجة ، إذ المراد إن كان الأمر كما ذكرت فقد ظلمك .

الشبهة الثانية : تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ (١) قالوا فلو كان داود عليه السلام مصيبا فى

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٧٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حكمه لما خص الله تعالى سليمان بقوله : (ففهمناها) جوابه أن تخصيص سليمان عليه السلام بالذكر لا يدل على أن داود بخلافه فإن دليل الخطاب فى اللقب لا يفيد بإجماع المحققين ، ثم فى هذا التخصيص فائدتان سوى ماذكروه :

الأولى : أن داود عليه السلام كان متوقفاً لتعارض الأمارات وسليمان لم يكن كذلك .

الثانية : أن داود عليه السلام كان عالماً به لكنه ما أفتى امتحانا لابنه سليمان رجاء أن يفتى به ويستخرج حكمه ويكون تخصيص ابنه سليمان بأن فهمه ذلك تقريراً لعين والده وإعلاء درجته فى الناس وإنما أعرض عن ذكر داود عليه السلام للعلم باشتهاره فيما بين الخلق بمعرفة الأحكام ، ثم إنه تعالى خلف الكلام بقوله : ﴿ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ (١) لئلا يتوهم أنه كان جاهلا به وحاكما فيه بغير الصواب .

* * *

(١) سورة الأنبياء : الآية ٧٩ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة سليمان عليه السلام
وفيها شبهات ثلاث

الشبهة الأولى : تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ﴾ (١) الآيات قالوا : ظاهر الآية يدل على أن مشاهدة الخيل ألهته عن ذكر ربه حتى روى أن الصلاة فاتته .

جوابه : نذكر تفسير الآية فإن بذكره تزول الشبهة ، فنقول : المخصوص بالمدح فى (نعم العبد) محذوف فقيل : هو سليمان ، وقيل : هو داود عليهما السلام ، والأول أولى ، لأنه أقرب المذكورين ، ثم علل كونه ممدوحا بكونه أواباً رجاعا إليه بتوبته ، أو مؤوباً بالتسبيح مرجعاً لأن كل مؤوب أواب (إذ عرض عليه) أى على سليمان عليه السلام لأنه أقرب المذكورين - الصفون - الوقوف عن ابن قتيبة وصفها بالصفون والجودة ليجمع لها بين الوصفين المحمودين واقفة وجارية فإذا وقفت كانت مطمئنة فى مواقفها وإذا جرت كانت سراعاً فى جريها : ﴿ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى ﴾ (٢) وفيه ثلاثة أوجه :

الأول : أن تضمن أحببت معنى فعل يتعدى بعن ، كأنه قيل : أتيت حب الخير عن ذكر ربى .

الثانى : أحببت بمعنى لزمت الخير عن ذكر ربى عن كتاب ربى . وهو التوراة أو غيرها . فكما أن ارتباط الخيل فى كتابنا ممدوح فكذا فى كتابهم ، وهذا أولى من الأول ، لأن فيه تقرير الظاهر .

---

(١) سورة صٓ : الآية ٣١ .
(٢) سورة صٓ : الآية : ٣٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثالث : أن الإنسان قد يقول : إنى أحب كذا ولكنى أحب أن لا أحبه كالمريض الذى يشتهى ما يؤذيه فأما من أحب شيئاً وأحب محبته له كان ذلك غاية المحبة ، فقوله : أحببت حب الخير بمعنى أحببت حبى لهذه الخيل . وهذا الوجه الذى استنبطته أظهر الوجوه . والضمير فى (حتى توارت) وفى (ردوها) يحتمل أن يكون عائداً إلى الشمس لأنه جرى ذكر ماله تعلق بها وهى العشى ، وأن يكون عائداً إلى الصافنات وهذا أولى الوجهين ، لأنها مذكورة صحيحا دون الشمس ولأنه أقرب فى الذكر من لفظ العشى ، وعند ذلك يفرض هاهنا احتمالات أربعة :

الأول : أن يعود الضمير إلى الصافنات ، كأنه قيل : حتى توارت الصافنات بالحجاب ردوا الصافنات إلىّ .

الثانى : أن يعود إلى الشمس ، كأنه قيل : حتى توارت الشمس بالحجاب ردوا الشمس ، قيل : إنه عليه الصلاة والسلام لما فاتته الصلاة سأل الله أن يرد الشمس وهذا بعيد لأن قوله (ردوها) خطاب للجمع والأنبياء لايخاطبون الله تعالى بمثل هذا .

الثالث : أن يعود الأول إلى الشمس والثانى إلى الصافنات . وهو الذى ذهب إليه الأكثرون كأنه قيل حتى توارت الشمس بالحجاب . ردوا الصافنات إلىّ . وهذا أبعد لأنهما ضميران وردا فى موضع واحد فتفريقهما لا بالدليل غير جائز .

الرابع : أن يعود الأول إلى الصافنات والثانى إلى الشمس . وهذا مما لم يذهب إليه أحد : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ (١) فجعل يمسح مسحا فالأكثرون أى يمسح بالسيف بسوقها وأعناقها ،

---

(١) سورة صٓ : الآية ٣٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعنى يقطعها وهذا بعيد ، لأنه لو كان المسح بالسوق والأعناق هو القطع لكان القائل إذا قال : مسحت رأس فلان ويده فهم منه أنه قطعها ولكان معنى قوله : ﴿ فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ (١) القطع بل لو قيل مسح رأسه بالسيف فربما فهم منه ضرب العنق ، فأما إذا لم يذكر السيف فإنه لايفهم منه الضرب والقطع ألبتة ، على أن قوله : مسح عنقه بالسيف لا يفيد القطع إلا على سبيل المجاز . فكيف إذا ترك ذكر السيف ؟ .

فإذا عرفت التفسير زعمت الحشوية أنه عليه السلام غزا أهل دمشق فأصاب ألف فرس فقعد يوما بعد ما صلى الأولى على كرسيه واستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتى غفل عن صلاة العصر ، أو عن ورد كان له من الذكر وقت العشى ، حتى غربت الشمس وهو المراد من قوله تعالى ﴿ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴾ (٢) ثم استرد الخيل ، وهو المراد بقوله ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ ثم عقرها تقربا إلى الله تعالى وهو المراد بقوله ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴾ .

واعلم أن هذه الحكاية مع أنه لادلالة فى الآية عليها ألبتة ففى الآية ماينافيها من وجوه خمسة ، **الأول** : أنه تعالى وصف سليمان عليه السلام فى مقدمة الآية بأن الله تعالى وهبه لداود عليه السلام فى معرض الإكرام (٣) وذلك ينافى أن يعقب ذلك بذكر أن سليمان كان تاركا

---

(١) سورة المائدة : الآية ٦ .

(٢) سورة صٓ : الآية ٣٢ .

(٣) بل وقوله : ﴿ نعم العبد ﴾ من أدل الدلائل على أن من أبعد الأمور أن يشتغل بالدنيا وحبها عن ذكر الله وطاعته .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

للصلاة وبأنه أواب حال ماعرضت عليه الصافنات فإن لفظة (إذ) دالة على ذلك ، وكونه أوابا وتاركا للصلاة فى زمان واحد محال . **الثانى** : أن قوله : ﴿ أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى ﴾ لو فسرناه بأنى لزمت الخير عن ذكر ربى لكان ذلك منافيا لما أرادوه ، أما إذا فسرناه بأنى أتيت حب الخير عن ذكر ربى فربما استقام لهم ماذكروه ، لكنا بينا أن الأول أولى . **الثالث** : أن رجوع الضمير فى (توارت) إلى الشمس يقتضى ترجيح غير المذكور ، وترجيح البعيد على القريب . وهو غير جائز . وعلى تسليم ذلك فالحكم برجوع الضمير فى (ردوها) إلى الصافنات تفريق للضمائر المشاكلة على أشياء متباينة . **الرابع** : أن قوله تعالى : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا ﴾ لادلالة فيه ألبته على قولهم . **الخامس** : أن هذه السورة إنما وردت فى مناظرة الكفار ، والمقصود من هذه القصص أمر النبى ﷺ بالصبر على مشاق التكاليف ، ومتاعب الطاعات . وذلك المعنى لا يليق به ذكر أن الأنبياء كانوا تاركين للصلاة ، ومتهالكين فى حب الدنيا بل التفسير الحق الذى ينطبق اللفظ عليه أن رباط الخيل مندوب إليه فى دينهم كما أنه كذلك فى ديننا . ثم إن سليمان عليه السلام جلس لتعرض عليه الخيل ، ثم بين أن ذلك لم يكن لحب الدنيا لأن الله تعالى أقره على ماقال : ﴿ إنى أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى ﴾ ثم أمر بركضها حتى توارت بالحجاب أى حتى غابت عن بصره ثم أمر بردها ﴿ فَطَفِقَ مَسْحاً ﴾ فطفق يمسح سوقها وأعناقها تشريفا لها وإبانة لعزتها لكونها من أعظم الأعوان فى دفع العدو . أو لأنه أراد أن يبين عن نفسه أنه فى السياسة وحفظ الدين والدنيا بحيث لايخفى عليه شىء من مصالحه ، أو لأنه كان أعلم بأحوال الخيل من غيره يفحصها ويمسحها ليعلم حالها فى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الصحة والسقم فهذا الذى ذكرناه كلام ينطبق عليه اللفظ ويلائمه ماقبل الآية ومابعدها . وفيه تعظيم الأنبياء فكان أولى بما يكون بالضد منه .

فإن قلت : فكيف تعمل بإطباق الأكثرين على تلك الحكاية ؟

قلت : الكلام فى تفسير كتاب الله تعالى غيره فى حكاية منفصلة عن كتاب الله تعالى . ومقصودنا الآن هو الأول . وقد بينا أنه لادلالة فى الآية على تلك الحكاية ألبتة ، بل ظاهرها ينافيها من وجوه كثيرة . فإذن لم يبق إلا أن يقال : إنها حكاية منفصلة عن كتاب الله تعالى .

فإن قلت : فما قولك فيها ؟ فنقول : الدلائل الباهرة عن المعقول والمنقول قد دلت على وجوب عصمة الأنبياء فاتباعها أولى من اتباع حكايات لاندرى أنها فى أول الأمر من رئيس الملاحدة أو موضوعات اليهود . وبالله التوفيق .

الشبهة الثانية :تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ (١) الآية .

جوابه : أما قوله : ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ ﴾ أى امتحناه ، وأما قوله : ﴿ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ﴾ فقد اختلفوا فيه أما الذى يقوله المحققون فأحد أمور ثلاثة :

الأول : أن النبى عليه الصلاة والسلام قال : « إن سليمان قال : لأطوفن الليلة على مائة امرأة فتلد كل منها غلاماً يقاتل فى سبيل الله ولم

---

(١) سورة صٓ : الآية ٣٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقل إن شاء الله ، فطاف ولم تحبل إلا واحدة فولدت نصف غلام فجاءت به القابلة وألقته على كرسيه بين يديه . ولو قال إن شاء الله لكان كما قال » (١) فكان الابتلاء لأجل تركه الاستثناء .

الثانى : أنه امتحنه بمرض شديد ، فصار جسداً لاحراك به مشرفا على الموت ، كما يقال : لحم على وضم (٢) وجسد بلا روح على معنى شدة الضعف ، والتقدير : وألقينا جسده على كرسيه ، فحذف الهاء للاختصار .

الثالث : ولد لسليمان ولد ، فاحتال الشياطين فى قتله ، وقالوا : نخاف أن يعذبنا كما يعذبنا أبوه ، فأمر السحاب فحملته وأمر الريح فغذته خوفاً من الشياطين فمات الولد ، فألقى ميتا على سريره ابتلاءاً حين خاف الشياطين .

فأما الذى يذكره الأكثرون من القصاص من حديث الخاتم وآصف فتلك الحكاية باطلة لم يدل على صحتها شىء فلا يجوز الالتفات إليها .

الشبهة الثالثة : تمسكوا بقوله : ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً لَايَنْبَغِى لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى ﴾ (٣) قالوا : هذا حسد فكيف يليق بالنبى ﷺ ؟ .

---

(١) هذا الحديث رواه البخارى ومسلم بغير هذا اللفظ عن أبى هريرة .

(٢) الوضم : الخشبة يوضع عليها اللحم ليأخذ كل من مر به منه لايمتنع على أحد إلا أن يذب عنه ويدفع .

(٣) سورة صٓ : الآية ٣٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوابه : من وجوه سبعة **الأول** أن معجزة كل نبى يجب أن تليق بأحوال أهل زمانه ، ولما كانت منافسة أهل زمانه بالمال والجاه طلب مملكة فائقة على كل الممالك لتكون معجزة له .

الثانى : أنه لما مرض ثم رجع إلى الصحة عرف أن خيرات الدنيا ومافيها صائرة إلى الغير بإرث أو غيره ، فسأل ربه ملكا لا يمكن أن ينتقل منه ، وذلك ملك الآخرة .

الثالث : أن فى مراتب الرياضات والمجاهدات كثرة ولكل واحد من السالكين اختصاص بواحد منها فكأنه كان اختصاص سليمان عليه السلام بمقام رياضة النفس ومراقبتها ومحاسبتها أشد ، ومعلوم أن الدنيا حلوة خضرة والامتناع عن الانتفاع بها حال القدرة أشق من الامتناع حال العجز فكأنه عليه السلام قال : أعطنى من الدنيا أكمل المراتب حتى أتحمل فى الاحتراز عنها أعظم المشاق .

الرابع : أن من الناس من يقول الاحتراز عن لذات الدنيا أصعب لأنها نقد ولذات الآخرة نسيئة وترجيح النسيئة على النقد شاق ، **فهو** عليه السلام رد على هؤلاء الباطلين . وقال : ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مُلْكاً ﴾ الآية حتى تروا كيف استحقره فى جنب الالتذاذ بطاعة المولى .

الخامس : هو أن الوصول إلى الله تعالى على نوعين : أحدهما – وهو الأكمل – أن يرفعه الله إليه ابتداءاً فضلا منه ورحمة من غير تكليف شىء من المتاعب وهو طريقة رسولنا عليه الصلاة والسلام على ماقاله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا ﴾ (١) . **والثانى** : أن يتكلف

(١) سورة الإسراء : الآية ١ .

العبد الذهاب إليه وهو الطريقة التى حصل أعلاها لموسى عليه السلام فى قوله : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا ﴾ (١) وإن سليمان عليه السلام على شرع موسى عليه السلام وطريقته فكان أبدا فى الرياضة والإنسان لا يفرغ قلبه عن شيء مالم يجر به فكأن نفس سليمان عليه السلام كانت ملتفتة إلى مملكة الدنيا فقال ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكاً ﴾ الآية حتى أذوقه فيفرغ قلبى عنه فيزول شغل الالتفات إليه ، فيخلص السر إلى طاعتك والاشتغال بعبادتك .

السادس : إن للسيارين إلى الله تعالى تارات ، فتارة يختارون مقام التواضع ، وذلك إذا ما نظروا إلى أنفسهم من حيث هم هم ، وتارة مقام الاستعلاء وذلك إذا ما رأوا أنفسهم من حيث أنهم بالحق ، فلا يبعد أن يكون هذا الخاطر إنما ورد على سليمان عليه السلام فى المقام الثانى

السابع وهو جواب المتكلمين إنه عليه السلام كان مأذونا من الله فيه وعلى هذا التقدير لا يكون فيه عتب .

* * *

(١) سورة الأعراف : الآية ١٤٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة يونس عليه السلام

تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) من ثلاثة أوجه :

الأول : أنه ذهب مغاضبا وذلك كان محظوراً . ألا ترى أن الله تعالى قال : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ (٢) فذلك يقتضى أن ذلك الفعل من يونس عليه السلام كان محظوراً .

الثانى : قوله : ﴿ فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾ (٣) وذلك يقتضى كونه شاكا فى قدرة الله تعالى .

الثالث قوله : ﴿ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٤) .

الجواب : **عن الأول** : أن الآية دلت على أنه ذهب مغاضبا ولم تدل على أنه غاضب الله ، وكيف ومغاضبة الله تعالى لا تجوز على أحد من المسلمين ، فكيف على النبى عليه السلام ؟! فلعله إنما خرج مغاضبا لقومه ، فلم قلتم إن ذلك معصية ؟ أما قوله : ﴿ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ ﴾ فليس لأنه ثقلت عليه أعباء النبوة لضيق خلقه ، بل المراد أنه لم يقو على الصبر على تلك المحنة التى ابتلاه الله بها ولو صبر لكان أفضل فأراد الله تعالى بمحمد ﷺ أفضل المنازل وأعلاها ، **وعن الثانى** : أن الشك فى قدرة الله تعالى كفر ، ولا نزاع أنه لا يجوز اتصاف الأنبياء به ، بل

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٨٧ .

(٢) سورة القلم : الآية ٤٨ .

(٣)،(٤) سورة الأنبياء : الآية ٨٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المراد أن لا نضيق الأمر عليه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللهُ ﴾ (١) وقال : ﴿ اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ (٢) أى يوسع ويضيق ، وقال : ﴿ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ﴾ (٣) أى ضيقة .

وعن الثالث فالجواب عنه ماتقدم من قصة آدم عليه السلام .

* * *

---

(١) سورة الطلاق : الآية ٧ .

(٢) سورة العنكبوت : الآية ٦٢ .

(٣) سورة الفجر : الآية ١٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة لوط عليه السلام

تمسكوا بقوله تعالى إخباراً عنه عليه السلام : ﴿ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ (١) عرض بالفاحشة مع بناته وذلك كسرة دالة على سقوط النفس .

جوابه :قال الشافعى رحمه الله الكلام يجمل فى غير مقصوده ويفصل فى مقصوده ، فلما كان غرضه ترجيح النساء على الغلمان لاجرم لم يتعرض لذكر النكاح وإن كان ذلك معتبراً فى نفس الأمر ، والدليل على أن هذا الشرط معتبراً وجهان : **الأول** قال : (هن أطهر) ولاطهارة فى الزنا .

الثانى : أنه لو دعا نفسه إلى الزنا لكان لهم أن يقولوا الزنا واللواطة حرامان على مذهبك ، فأى فائدة فى الدعوى من أحدهما إلى الآخر ؟ .

فإن قيل : هب أنه كذلك ولكن كيف يجوز تزويج المسلمة من الكافر ؟ **جوابه** من وجوه أربعة :

الأول : أن ذلك مما يختلف باختلاف الشرائع . ألا ترى أن النبى ﷺ زوج ابنته زينب من أبى العاص وهو كافر (٢) **الثانى** أنا كما أثبتنا ضمنا فكذلك إسلام الزوج . **الثالث** : أنه عليه السلام أراد موافقتهم وتسويفهم وذلك لأن الرسل من الملائكة عليهم السلام كانوا أخبروه بهلاكهم عند الصبح ، كما أخبر الله عنه ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴾ (٣) **الرابع** : أنه يكفى فى الإضافة أدنى سبب ، فالبنات بنات الأمة إلا أنه أضافهن إلى نفسه لأن الرسل عليهم الصلاة والسلام كالأب لأمتهم .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٧١ .

(٢) أبو العاص بن الربيع كانت خالته خديجة رضى الله عنها أخذ أسيراً فى بدر مع المشركين فمن عليه المسلمون على أن يترك زينب تهاجر إلى المدينة ففعل ، ثم لم يلبث أن جاء مسلماً بعد هجرة زينب بسنة فردها عليه النبى ﷺ بالنكاح الأول . وقد كان تزوجها قبل البعثة النبوية .

(٣) سورة الحجر : الآية ٦٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة زكريا عليه السلام

تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا . قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ (١) ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ (٢) قالوا : قد شك فى قدرة الله تعالى .

جوابه : لو كان الأمر على ماقالوه لكان زكريا عليه السلام غير عاقل لما سأل الله ذلك فلما أضافه إليه استنكره فاستبعد قدرته عليه كان ذلك من أفعال المجانين ، فثبت أن الأمر بخلاف ماقالوه وذلك أن زكريا عليه السلام لم يسأل ربه أن يهب له ولداً من جهة الولادة وإنما سأله أن يهب له ولدا من عنده فقال : ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾ (٣) وقال فى آل عمران : ﴿ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ﴾ (٤) إنما سأل ذلك عند ما أخبرته مريم بأن رزقها يأتيها من عند الله فسأل ولداً من عنده فلما بشرته الملائكة بالولد سأل كيف ذلك يقع على كبره ، وكيف وكانت امرأته عاقرا ؟ فقال : ﴿ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٥) .

---

(١) سورة مريم : الآيتان ٧ ، ٨ .

(٢) سورة مريم : الآية ٢١ .

(٣) سورة مريم : الآية ٥ .

(٤) الآية : ٣٨ .

(٥) سورة آل عمران : الآية ٤٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة عيسى عليه السلام
وفيها شبهتان

الشبهة الأولى : تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ ﴾ (١) من وجوه :

الأول : أن عيسى عليه السلام إن كان قال هذا الكلام فالإشكال قائم . وإن لم يقل كان الاستفهام عبثا .

الثانى : أن النفس هى الجسد فقوله تعالى : ﴿ وَلَا أَعْلَمُ مَافِي نَفْسِكَ ﴾ (٢) ظاهره يوهم إثبات الجسم لله تعالى .

الثالث : أن كلمة (فى) للظرفية ، وهى لا تجىء إلا فى الأجسام .

والجواب : عن الأول أنه عليه السلام ماقال ذلك وللاستفهام فائدة وهى تقريع من ادعى ذلك من النصارى ، وعن الثانى أن النفس فى اللغة بمعنى الذات ، يقال : نفس الشىء ذاته ، وعن الثالث أن المراد حلول الصفة فى الموصوف .

الشبهة الثانية : فى قوله تعالى : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٣) **الجواب** المقصود من هذا الكلام تفويض الأمر إلى الله تعالى بالكلية وترك الاعتراض وتحقيق معنى ﴿ لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ﴾ (٤) .

---

(١)،(٢) سورة المائدة : الآية ١١٦ .
(٣) سورة المائدة : الآية ١١٨ .
(٤) سورة الأنبياء : الآية ٢٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قصة سيدنا ومولانا محمد ﷺ
وفيها شبهات

الشبهة الأولى : تمسكوا بقوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ (١) .

الجواب : أن الضلال هو الذهاب والانصراف ولابد من أمر يكون منصرفا عنه وهو غير مذكور ، والخبران بغير ما يوافق الدليل وهو أمور أربعة :

الأول : وجدك ضالا عن النبوة فهداك إليها ويؤكده قوله تعالى : ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإِيمَانُ﴾ (٢) .

الثانى : وجدك ضالا عن المعيشة وطريق الكسب .

الثالث :وجدك ضالا فى زمان الصبى فى بعض المفاوز .

الرابع : وجدك ضالا أى مضلولا عنه فى قوم لا يعرفون حقك فهداهم إلى معرفتك كما يقال : فلان ضال فى قومه إذا كان مضلولا عنه .

الشبهة الثانية :

تمسكوا بقوله تعالى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ (٣) قالوا : إن ظاهر الآية يدل على أن الشيطان ملقٍ فى قراءة الأنبياء ما يؤدى إلى الشبهة ، فإذا جوزنا ذلك ارتفع الوثوق ، روى أنه عليه الصلاة والسلام شق عليه ما رأى من مباعدتهم عما جاءهم به فتمنى فى نفسه أن يأتيه من الله تعالى ما يقارب بينه وبين قومه ، وذلك لحرصه على إيمانهم ، فجلس ذات يوم فى ناد من

---

(١) سورة الضحى : الآية ٧ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٥٢ .

(٣) سورة الحج : الآية ٥٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أندية قريش كثير أهله ، وأحب يومئذ أن لا يأتيه شيء من الله فينفروا عنه ، وتمنى ذلك فأنزل الله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ (١) فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى بَلَغَ : (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَ الْعُزَّى وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى) (٢) ألقى الشيطان على لسانه ماكان يحدث به نفسه ويتمناه « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » فلما سمعت قريش ذلك فرحوا ومضى رسول الله ﷺ فى قراءته فقرأ السورة كلها وسجد فى آخرها فسجد المسلمون وسجد جميع من فى المسجد من المشركين . فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر إلا سجد إلا الوليد ابن المغيرة وأبو أحيحة سعيد بن العاص ، فإنهما أخذا حفنة من البطحاء ورفعاها إلى جبهتهما وسجدا عليها لأنهما كانا شيخين كبيرين فلم يستطيعا السجود ، وتفرقت قريش وقد سرهم ماسمعوا وقالوا : قد ذكر محمد عليه الصلاة والسلام آلهتنا بأحسن الذكر . فلما أمسى رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وقال : ماذا صنعت ؟ تلوت على الناس مالم آتك به عن الله ، وقلت مالم أقل لك ؟! فحزن رسول الله ﷺ حزناً شديداً وخاف من الله خوفا كثيراً فأنزل الله هذه الآية (٣) .

---

(١) سورة النجم : الآية ١ .

(٢) سورة النجم : الآيتان ١٩ ، ٢٠ .

(٣) قال الحافظ ابن كثير فى التفسير : قد ذكر كثير من المفسرين هنا قصة الغرانيق وما كان من رجوع كثير من مهاجرة الحبشة ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا ولكنها من طرق كلها مرسلة ، ولم أرها من وجه صحيح .

وقال القسطلانى فى شرح البخارى : وقد طعن فى هذه القصة وسندها غير واحد من الأئمة حتى قال ابن إسحق – وقد سئل عنها – هى من وضع الزنادقة ، وقال القاضى عياض : إن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة ولارواه أحد بسند متصل . =

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجواب : الذى يدل على أنه عليه السلام ماغير ومابدل وجوه خمسة :

الأول : قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ (١) **الثانى** ﴿ قُلْ مَايَكُونُ لِيَ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَايُوحَى إِلَيَّ ﴾ (٢) **الثالث** ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلاً . وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً ﴾ (٣) **الرابع** ﴿ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ (٤) **الخامس** : قوله ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى ﴾(٥) وإذا ثبت ماذكرناه فلنشرع فى الجواب عن الشبهة فنقول :

= وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون عن الصحف كل صحيح وسقيم . ونقل عن أبى بكر بن العربى الإمام المالكى : إن جميع ماورد فى هذه القصة لا أصل له ، قال القاضى : والذى ورد فى الصحيح « أن النبى ﷺ قرأ (والنجم) وهو بمكة فسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس » ثم قال : وقد قامت الحجة وأجمعت الأمة على عصمته ﷺ ونزاهته عن هذه الرذيلة ، إما من تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح آلهة غير الله ، وهو كفر ، أو أن يتسود عليه الشيطان ويشبه عليه القرآن حتى يجعل فيه ماليس منه ويعتقد النبى ﷺ أن من القرآن ماليس منه حتى يفهمه جبريل . وذلك كله ممتنع فى حقه ﷺ ، أو يقول النبى ﷺ ذلك من قبل نفسه عمداً – وذلك كفر – أو سهواً ، وهو معصوم من هذا كله ، وقد قررنا بالبراهين والإجماع عصمته ﷺ من جريان الكفر على لسانه أو قلبه لاعمداً ولا سهواً أو أن يشبه عليه مايلقيه الملك بما يلقى الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل أو أن يتقول على الله مالم ينزل لاعمداً ولا سهوا .

(١) سورة الحاقة : الآية ٤٦ .
(٢) سورة يونس : الآية ١٥ .
(٣) سورة الإسراء : الآيتان ٧٣ ، ٧٤ .
(٤) سورة الفرقان : الآية ٣٢ .
(٥) سورة الأعلى : الآية ٦ .

التمنى : جاء فى اللغة لأمرين : **أحدهما** تمنى القلب . **والثانى** : التلاوة قال الله تعالى ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ ﴾ (١) أى إلا قراءة لأن الأمى لا يعلم القرآن من المصحف وإنما يعلمه قراءة ، وقال حسان (٢) :

تمنى كتاب الله أول ليلة وآخرها لاقى حمام المقادر

وقيل : إنما سميت القراءة أمنية لأن القارئ إذا انتهى إلى آية عذاب تمنى أن لا يبتلى به . وقيل : أخذ من التقدير لأن التالى مقدر للحروف يذكرها شيئا فشيئاً والتمنى التقدير ، منى الله خيرا أى قدره .

إذا عرف ذلك فنقول : من المفسرين من حمل الآية على تمنى القلب ، والمعنى أن النبى ﷺ متى تمنى بقلبه بعض مايتمناه من الأمور يوسوس الشيطان إليه بالباطل ويدعوه إلى ما لا ينبغى ، ثم إن الله تعالى ينسخ ذلك ويبطله ويأتيه بما يرشده إلى ترك الالتفات إلى وسوسته . وهذا ضعيف لأنه لو كان كذلك لم يكن مايخطر بباله ﷺ فتنة للكفار ، وذلك يبطله قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَايُلْقِى الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ (٣) لآية : فثبت أن المراد بالتمنى القراءة .

ثم اختلف الداهبون إلى هذا التأويل على وجوه ستة :

الوجه الأول : أن النبى ﷺ لم يتكلم بذلك ولا تكلم الشيطان أيضا ، ولكنه عليه الصلاة والسلام لما قرأ سورة ﴿ والنجم إذا هوى ﴾

---

(١) سورة البقرة : الآية ٧٨ .

(٢) قال ذلك فى رثاء عثمان بن عفان حين قتل مظلوما رضى الله عنه .

(٣) سورة الحج : الآية ٥٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اشتبه الأمر على الكفار فحسبوا بعض ألفاظ ما قرأه « تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » وذلك على حسب ماجرت العادة من توهم بعض الكلمات على غير مايقال ، وهذا فاسد لوجوه ثلاثة : **الأول** أن التوهم فى مثل ذلك إنما يصح فيما قد جرت العادة بسماعه ، فأما غير المسموع فلا يقع فيه ذلك ، **الثانى** : أنه لو كان كذلك لوقع هذا التوهم لبعض السامعين دون البعض ، فان العادة مانعة من اتفاق الجمع العظيم فى الساعة الواحدة على خيال فاسد فى المحسوسات . **الثالث** : لو كان كذلك لم يكن ذلك مضافا إلى الشيطان .

الوجه الثانى : أن يكون عليه الصلاة والسلام تكلم بذلك إما عامدًا أو ساهيا . أما العمد فغير جائز . لأنه تخليط فى الوحى . وذلك يوجب زوال الثقة عن كل ماجاء به .

فإن قلت : لعله قد ذكر ذلك استفهاما على سبيل الإنكار .

قلت : هب أنه كذلك لكن قراءته فى أثناء قراءة القرآن مع كونه على ذلك الوزن توهم كونه منه ، فيعود المحذور المذكور . أما السهو فغير جائز أيضا لأنه لو جاز وقوع السهو ههنا لجاز فى غيره وحينئذ ترتفع الثقة بالشرع . ولأن الساهى لا يجوز أن يقع منه مثل هذه الألفاظ مطابقة لوزن هذه السورة وطريقتها ومعناها . فإنا نعلم بالضرورة أن واحدا لو أنشد قصيدة لما جاز أن يسهو حتى يتفق فيه بيت شعر فى وزنها ومعناها وطريقتها .

الوجه الثالث : أن يكون الشيطان أجبر النبى ﷺ على التكلم وهذا أيضا فاسد لوجوه ثلاثة : **الأول** أن الشيطان لو قدر على ذلك لوجب فى القياس أن يزل الشيطان ولجاز فى أكثر مايتكلم به الواحد منا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أن يكون ذلك بإجبار الشيطان ، **الثانى** أن الشيطان لو تمكن من اجبار النبى عليه الصلاة والسلام على ذلك لارتفع الإيمان عن الوحى لقيام هذا الاحتمال **الثالث** قوله تعالى حاكيا عن الشيطان : ﴿ وَمَا كَانَ لِى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ ﴾ (١) الآية وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (٢) الآيتان . وقال : ﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣) فاعترف بأنه لا سبيل له عليهم .

الوجه الرابع أن يكون ذلك الكلام كلام الشيطان وذلك بأن يلفظ بكلام من تلقاء نفسه فى درج تلك التلاوة فى بعض وقفاته ليظن أنه من جنس الكلام المسموع منه عليه السلام وهو غير ممتنع لأنه لاخلاف أن الجن والشياطين متكلمون فلا يمتنع أن يسمع الشيطان من غير أن يرى صورته فإذا سمع كلامه فى أثناء كلام آخر لم يبعد أن يظن السامعون كون ذينك الكلامين من ذلك الشخص المبصر ثم هذا لايكون قادحا فى النبوة لما لم يكن فعلا للنبى .

ولقائل أن يقول : إذا جوزتم أن يتكلم الشيطان فى أثناء كلام الرسول عليه الصلاة والسلام بما يشتبه على كل السامعين حتى يظنوه كلاما لرسول الله ﷺ بقى هذا الاحتمال فى كل مايتكلم به الرسول عليه الصلاة والسلام فتفضى إلى ارتفاع الوثوق عن كل الشرع .

الجواب : أن ذلك الاحتمال قائم ، ولكنه لو وقع لوجب فى حكمة الله تعالى أن يشرح الحال فيه كما فى هذه الواقعة إزالة للتلبيس .

---

(١) سورة إبراهيم : الآية ٢٢ .

(٢) سورة النحل : الآية ٩٩ .

(٣) سورة الحجر : الآية ٤٠ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوجه الخامس : أن المتكلم بذلك بعض الكفرة ، فإنه عليه الصلاة والسلام لما انتهى من قراءة هذه السورة إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته أنه يعيبها ، فقال بعض من حضر من الكفار : « تلك الغرانيق العلا » فاشتبه على القوم ، لأنهم كانوا يلغطون عند قراءته ويكثرون من الكلام طلبا لتغليطه وإخفاء قراءته . وممكن أن يكون أيضا فى الصلاة لأنهم كانوا يقربون منه فى حال الصلاة ويسمعون قراءته ويلغون فيها ، وقيل : إنه عليه الصلاة والسلام كان إذا تلا القرآن على قريش توقف فى فصول الآيات ، فألقى بعض الحاضرين ذلك الكلام فى تلك الواقعات فتوهم القوم أنه من قراءته عليه الصلاة والسلام ثم أضاف الله ذلك إلى الشيطان لأنه بوسوسته حصل ، أو لأنه جعل ذلك المتلكم شيطانا .

الوجه السادس : أن المراد بالغرانيق الملائكة (١) وقد كان ذلك قرآنا منزلا فى وصف الملائكة ، فلما توهم المشركون أنه يريد آلهتهم نسخ الله تلاوته .

الشبهة الثالثة :

تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ ﴾ (٢) الآية ، روى أنه عليه الصلاة والسلام رأى زينب بنت جحش بعد

---

(١) وهذا من أبعد القول وأحقه بالرد . إذ كيف يكون فى حق الملائكة وهو يشير إلى اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ؟ فقائل هذا لم يفكر حين قاله .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٢٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مازوجها من زيد فهويها . فلما حضر زيد لطلاقها أخفى فى نفسه عزمه على نكاحها بعده لهواه لها فعاتبه عليه بقوله : ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ الآية (١) .

الجواب : من أربعة وجوه .

أحدها : الذى يدل عليه أنه لم يصدر من الرسول فى هذه الواقعة مذمة ، ولاعاتبه الله على شىء منه ؛ ولا ذكر أنه عصى وأخطأ . ولا ذكر استغفار النبى منه ، ولا أنه اعترف على نفسه مخطئاً ، وأنه لو صدر عنه زلة لوجد من ذلك شىء كما فى سائر الأنبياء عليهم السلام متى صدرت عنهم زلة أو ترك مندوب وجد منه ماذكرناه .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٧ وقال القاضى أبو بكر بن العربى فى أحكام القرآن (ج ٢ ص ١٦٨) قد بينا فى السالف من كتابنا هذا وفى غير موضع عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم من الذنوب وحققنا القول فيما نسب إليهم من ذلك وعهدنا إليكم عهداً لن تجدوا له رداً : أن أحداً لا ينبغى أن يذكر الأنبياء إلا بما ذكره الله لا يزيد عليه . فإن أخبارهم مروية وأحاديثهم منقولة بزيادات تولاها أحد رجلين : أماغبى عن مقدارهم ، وإما بدعى لا رأى له فى برهم ووقارهم فيدس تحت المقال المطلق الدواهى ولا يراعى الأدلة ولا النواهى – إلى أن قال : وهذه الروايات كلها ساقطة الأسانيد . إنما الصحيح منها ماروى عن عائشة أنها قالت : « لو كان رسول الله ﷺ كاتما من الوحى شيئاً لكتم هذه الآية ﴿ وإذ تقول للذى أنعم الله عليه ﴾ يعنى بالإسلام ﴿ وأنعمت عليه ﴾يعنى بالعتق ﴿ أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه – إلى قوله : وكان أمر الله مفعولا ﴾ وأن رسول الله ﷺ لما تزوجها قالوا تزوج حليلة ابنه . فأنزل الله ﴿ ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ﴾ الآية ، وكان رسول الله ﷺ تبناه وهو صغير فلبث حتى صار رجلا يقال له زيد بن محمد فأنزل الله تعالى ﴿ أدعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله ﴾ الآية فلان مولى فلان وأخو فلان أخو فلان ﴿ هو أقسط عند الله ﴾ يعنى أنه أعدل عند الله تعالى » قال القاضى وما وراء هذه الرواية غير معتبر .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وثانيها : أنه ذكر فى القصة أنه ليس على النبى من حرج فيما فرض الله له ، وهذا تصريح بأنه لم يصدر منه ذنب ألبتة .

وثالثها : أنه تعالى إنما زوجه إياها كيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ، ولم يقل : إنى فعلت ذلك لأجل عشقك .

ورابعها : قوله تعالى : ﴿ زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ ولو حصل فى ذلك سوء لكان قدحاً فى الله تعالى . فثبت بهذه الوجوه أنه لم يصدر منه ذنب ألبتة فى الواقعة .

بقى قوله تعالى ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (١) فنقول : ذكر المحققون فيه وجوها أربعة :

الأول : أن الله تعالى لما أراد نسخ ماكان فى الجاهلية من تحريم أزواج الأدعياء أوحى الله أن زيدا – وهو دعى رسول الله ﷺ – يطلق زوجته فتزوج أنت بها . فلما حضر زيد ليطلقها أشفق رسول الله ﷺ من أنه لو طلقها للزمه التزوج بها فيصير بذلك سببا لسوء كلام المنافقين فيه فقال له ﴿ أَمْسِكْ عليكَ زوجَكَ ﴾ (٢) وأخفى فى نفسه عزمه على نكاحها بعد طلاقه إياها وهذا التأويل هو المطابق لقوله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا ﴾ (٣) فثبت أن العلة فى أمره بنكاحها ماذكرناه من نسخ السنة المتقدمة .

الثانى : أن زيدا لما خاصم زوجته زينب ، وهى ابنة عمة النبى عليه الصلاة والسلام وأشرف على طلاقها أخبر النبى ﷺ أنه طلقها زيد

---

(١)،(٢)،(٣) سورة الأحزاب : الآية ٣٧ .

تزوجها من حيث إنها كانت ابنة عمته ، وكان يحب ضمها إلى نفسه ، كما يحب أحدنا ضم قراباته إليه حتى لاينالهم ضرر ، إلا أنه لم يظهر ذلك خوفا من ألسنة المنافقين فالله تعالى عاتبه فى التفات قلبه إلى الناس فقال ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ (١) .

الثالث : أن زيدا لما نكح زينب وجدها ذات جمال وعفة وقوة وعقل وحسن خدمة فبدا له أن ينزل عنها لينكحها رسول الله ﷺ ولما رآها صالحة لصحبته خدمة له منه وقربة إلى الله تعالى بإيثار رسول الله ﷺ على نفسه فى حظ مباح . فجاء إلى رسول الله ﷺ وعرض عليه الأمر ولم يكن ذلك منكرا عنده عليه الصلاة والسلام غير أن زيدا تبناه النبى عليه الصلاة والسلام وكان التزوج بامرأته محرما فى الجاهلية ، فعلم أنه لونكحها أطالوا ألسنتهم فيه وكانوا على قرب عهد من الإسلام يحترزون عن مثل هذه الأمور ، فامتنع النبى ﷺ عن نكاحها وقال له : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ مع مافى قلبه من الرضا حذرا عما ذكرناه فنزلت هذه الآية ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ ﴾ يعنى من إضمار الرضى ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ ﴾ يعنى تستحى منهم أن يقولوا نكح زوجة ابنه ﴿ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ فى إظهار أمر غير ما تضمره .

---

(١) فأخبر الله تعالى رسوله ﷺ والناس بما كان يضمره من إيثار ضمها إلى نفسه ليكون ظاهر الأنبياء عليهم السلام وباطنهم سواء ، ولهذا قال رسول الله ﷺ للأنصار يوم فتح مكة وقد جاء عثمان بعبد الله بن سعد بن أبى سرح وسأله أن يرضى عنه وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد أهدر دمه وأمر بقتله فلما رأى عثمان استحى من رده وسكت طويلا ليقتله بعض المؤمنين فلم يفعل المؤمنون ذلك انتظاراً منهم لأمر رسول الله ﷺ فقال للأنصار : أما كان فيكم رجل يقوم إليه فيقتله فقال له عباد بن بشر يارسول الله إن عينى فى عينك انتظارا أن تومىء إلىّ فأقتله فقال له رسول الله ﷺ : الأنبياء لا تكون لهم خيانة أعين والله أعلم .

الرابع : أن زينب طمعت فى أول أمرها أن يتزوج بها رسول الله ﷺ فلما خطبها الرسول لزيد شق ذلك عليها وعلى أخيها وأمها ، حتى نزل قوله تعالى : ﴿ مَاكَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ﴾ (١) الآية فعند ذلك انقادوا كرها ، فلما بنى بها زيد لم تساعده ونشزت عنه لاستحكام طمعها فى رسول الله ﷺ واستحقارها زيدا ، فشكاها إلى النبى ﷺ فقال : ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ وأخفى فى نفسه استحكام طمعها فيه ، لأنه عليه الصلاة والسلام لو ذكر ذلك لزيد لتنغصت عليه تلك النعمة ، ولقال المنافقون إنه إنما قال ذلك طمعا فى تلك المرأة . فهذه وجوه سوى ماذكره الطاعنون فى أنبياء الله تعالى ورسله وكلها محتمل .

فإن قلت : هب أن الأمر كذلك ، ولكن قوله تعالى : ﴿ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾ يدل على أن ذلك الإخفاء ماكان جائزاً له .

قلت : أكثر مافيه أنه أخفى ذلك اتقاءاً لسوء كلام المنافقين ولو أنه أظهره وتحمل سوء مقالتهم لكان أكثر ثواباً فيه ، فيرجع حاصله إلى ترك الأولى والأفضل فليس ذلك من الذنب فى شيء ، فأما الذين يذكرون من أنه عشقها فهو من باب الآحاد والأولى تنزيه منصب الأنبياء عن مثله لاسيما والقرآن لا يدل عليه ألبتة . ثم على تقدير الصحة ففيها روايتان : منهم من يقول بأنه عليه الصلاة والسلام لما رآها وعشقها حرمت على زيد . وهذا قطعا غير صحيح لأنه لو كان كذلك لكان أمره لزيد بإمساكها أمراً بالزنا ولكان وصفه إياها بكونها زوجة كذبا وهذان الأمران لا يليقان بالمسلمين فضلا عن أفضل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ومنهم من لا يقول بحرمتها على زوجها . ولكن يقول

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٣٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يجب على الزوج تطليقها والنزول عنها، وقالوا : والمعنى فيه امتحان للزوج فى إيمانه بتكليف النزول عن زوجته طلبا لرضى الله تعالى ورضى رسول الله ﷺ . وفيه أيضا ابتلاء النبى عليه الصلاة والسلام وتكليفه الحذر عن الأعين لأن حفظ النظر أشق على النفس فقيل له إن لم تحفظ نظرك فربما أبصرت شيئا فاشتهيته لأن الشهوة ليست مقدورة للبشر . وإذا اشتهيته وجب على الزوج طلاقها والنزول عنها فإن أخبرته بذلك تعرضت لسوء المقالة وإن كتمته صرت خائنا فى الوحى ، فلأجل الاحتراز عن هذه التوابع كان النبى ﷺ يبالغ فى حفظ النظر وذلك من أشق التكاليف . فهذا ماقيل فى هذا الباب .

الشبهة الرابعة :

تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (١) الآية . والاستدلال من ثلاثة أوجه :

الأول : قوله تعالى : ﴿ مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ﴾ وذلك يقتضى أن يكون استبقاء الأسرى محرما .

الثانى : قوله : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ (٢) وذلك مذكور فى معرض الذم .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (٣) .

---

(١)،(٢) سورة الأنفال : الآية ٦٧ .

(٣) سورة الأنفال : الآية ٦٨ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجواب : الذى يدل على براءة منصب الأنبياء فى هذه الواقعة عن كل مالا ينبغى وجوه :

الأول : أنه إما أن يكون قد أوحى له فى جواز الأسر وخطر إليه شىء ، أو ما أوحى إليه شىء فإن كان قد أوحى إليه شىء لم يجز للنبى عليه الصلاة والسلام أن يستشير أصحابه فيه لأن مع قيام النص وظهور الوحى لا يجوز الاشتغال بالاستشارة ، وإن لم يوح إليه شىء ألبتة لم يتوجه عليه ذنب ألبتة .

الثانى : أن ذلك الحكم لو كان خطأ لأمر الله تعالى بنقضه ، فكان يؤمر بقتل الأسرى ويرد ما أخذ منهم ، قلنا : لما لم يكن كذلك بل قل : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّباً ﴾ (١) علمنا أنه لم يوجد الخطأ فى ذلك الحكم ألبتة .

الثالث : أنه عليه الصلاة والسلام لم يشتغل بالاستغفار واللوم ، وذلك يدل على عدم الذنب على ماتقدم . وإذ قد بينا ذلك فنقول : كما يأتى العتاب على ترك الواجب فقد يأتى أيضا على ترك الأولى والأولى فى ذلك الوقت الإثخان وترك الفداء قطعا للأطماع وحسما للنزاع ، ولولا أن ذلك من باب الأولى لما فوض النبى ﷺ ذلك إلى الأصحاب ، وهذا هو العذر عن قوله : ﴿ مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ﴾ فأما قوله : ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ﴾ فهو خطاب جمع فيصرف ذلك إلى القوم الذين رغبوا فى المال (٢) وأما قوله : ﴿ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ ﴾ فمعناه لولا ماسبق

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٩ .

(٢) وهذا يدل على أن المعاتب فى شأن الأسرى هو غير النبى ﷺ بل يجب أن يكون سواه والقصة معروفة لأن الله تعالى أمر نبيه ﷺ بأن يأمر أصحابه بأن يثخنوا فى قتل أعدائهم بقوله تعالى : ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ وبلغ النبى ﷺ ذلك إلى أصحابه فسهوا عن ذلك وأسروا يوم بدر جماعة من المشركين طمعا فى الفداء فأنكر الله تعالى ذلك عليهم وبين أن الذى أمر به سواه .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من تحليل الغنائم لعذبتكم بسبب أخذكم هذا الفداء . وهذا غاية التقريع فى تخطئتهم فى أخذ الفداء من جهة التدبير .

فإن قلت : فإن كان ذلك محللا لهم فما هذا التقريع البالغ ؟ **قلت** لأن ذلك من باب الحروب ، وماكان من ذلك الباب فقد يقع الخطأ فيه من جهة التدبير ويقرع ذلك المخطىء ، وان كان غير مذنب .

الشبهة الخامسة :

أنه لما استأذنه قوم فى التخلف عن الخروج معه إلى الجهاد فأذن لهم فقال الله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ (١) والعفو لا يكون إلا بعد الذنب ، فدل على أنه كان مذنبا .

الجواب : أن العفو يقتضى ترك المؤاخذة ، وقوله : ﴿ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ ﴾ مؤاخذة . فلو أجرينا قوله تعالى : ﴿ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ﴾ على ظاهره لزمت المناقضة . فعلمنا أنه ليس المراد ذلك – ماجوابك عن كلامى – مثلا إنما المراد التلطف فى المخاطبة . كما يقال : أنت رحمك الله وغفر لك ، وإن لم يكن هناك ذنب ألبتة ، وأيضا فهذا من باب التدبير فى الحرب . وقد بينا أن تارك الأفضل فيه قد يقرع ويوبخ .

الشبهة السادسة :

قوله تعالى : ﴿ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ﴾ (٢) الآية صريح فى الذنب .

---

(١) سورة التوبة : الآية ٤٣ .

(٢) سورة الشرح : الآية ٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوابه : من وجوه ، **الأول** : حمله على الوزر الذى كان قبل النبوة ، **الثانى** : حمله على الصغيرة أو ترك الأولى ، **الثالث** : أن الوزر فى أصل اللغة هو الثقل . قال الله تعالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ (١) أى أثقالها ، وإنما سمى الذنب بالوزر لأنه يثقل كاسبه . فعلى هذا تسمية الذنب بالوزر مجاز آخر ، وهو أنه عليه الصلاة والسلام كان فى غم شديد لإصرار قومه على الشرك ، وأنه كان هو وأصحابه فيما بينهم مستضعفين فلما أعلا الله كلمته ، وعظم أمره فقد وضع وزره ، ويقوى هذا التأويل قوله : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ . فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا . إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ﴾ (٢) فإن العسر بالشدائد والغموم أشبه واليسر بإزالة الهموم أشبه .

فإن قلت : إن هذه السورة مكية فما ذكرت من المعنى لا يليق بها ، **قلت** : إن وعد الله حق ، فلما وعده الله بذلك فى مكة فقد قوى قلبه وزالت كربته .

الشبهة السابعة :

تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَاتَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ (٣) قالوا : وهذا تصريح بالمغفرة **جوابه** أنا نحمله على ماقبل النبوة أو على الصغائر . ولمن أباهما تأويلات . **الأول** : أن المراد ماتقدم من ذنب أمتك وما تأخر ، فإن الرجل المعتبر إذا أحسن بعض خدمه أو أساء

---

(١) سورة محمد : الآية ٤ .

(٢) سورة الشرح : الآيات ٤ ، ٥ ، ٦ .

(٣) سورة الفتح : الآية ٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فإنه يقال له : أنت فعلت ذلك وإن لم يكن هو فاعله بنفسه ألبتة ، **الثانى** : إذا ترك الأولى قد يسمى ذنبا كما يقال : حسنات الأبرار سيئات المقربين ، **الثالث** : أن الذنب مصدر ، ويجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول (١) ، فكأن المراد ليغفر لأجلك وببركتك ماتقدم من ذنبهم فى حقك وماتأخر ، **الرابع** : أن الغرض من هذه الآية علو درجة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وذلك يحصل بقوله تعالى : لو كان لك ذنب لغفرته لك ، وإخراج القضية الجازمة إلى الشرطية جائز إذا دل سياق الكلام عليه ، **الخامس** : وهو أنه عليه الصلاة والسلام لاشك أنه بتقدير الإقدام على الذنب كان يتوب عنه ، فإن الإصرار على الذنب منفى عنه بالإجماع والتائب من الذنب كمن لا ذنب له . وإذا كان كذلك وجب علينا وعليهم تأويل هذه الآية .

الشبهة الثامنة :

تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴾ (٢) فعاتبه على إعراضه عن ابن أم مكتوم .

---

(١) ألا ترى أنهم يقولون : أعجبنى ضرب زيد عمرا إذا أضافوه إلى الفاعل ، وأعجبنى ضرب زيد عمرو إذا أضافوه إلى المفعول ومعنى المغفرة على هذا التأويل هى الإزالة والفسخ والنسخ لأحكام أعدائه من المشركين عليه وذنوبهم إليه فى منعهم إياه عن مكة وصدهم له عن المسجد الحرام ، وهذا التأويل يطابق ظاهر الكلام حتى تكون المغفرة غرضا فى الفتح ووجها له وإلا فإذا أراد مغفرة ذنوبه لم يكن لقوله : ﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبيناً ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر ﴾ معنى معقول لأن المغفرة للذنوب لاتعلق لها بالفتح وليست غرضا فيه ، والله أعلم .

(٢) سورة عبس : الآيتان ١ ، ٢ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوابه : لا نسلم أن هذا الخطاب متوجه إلى النبى عليه الصلاة والسلام . لا يقال : إن أهل التفسير قالوا : الخطاب مع الرسول ؛ لأنا نقول : هذه رواية الآحاد فلا تقبل فى هذه المسألة ثم إنها معارضة بأمور :

الأول : أنه وصفه بالعبوس وليس هذا من صفات النبى ﷺ فى قرآن ولا خبر مع الأعداء والمعاندين فضلا عن المؤمنين والمسترشدين ، **الثانى** : وصفه بأنه تصدى للأغنياء وتلهى عن الفقراء وذلك غير لائق باخلاقه ، **الثالث** : أنه لا يجوز أن يقال للنبى : ﴿ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّى ﴾ (١) فإن هذا الإغراء يترك الحرص على إيمان قومه فلا يليق بمن بعث بالدعاء والتنبيه .

سلمنا أن الخطاب مع النبى ﷺ لكن لا نسلم كونه ذنبا ، بيانه أنه تعالى وصف نبيه بحسن الخلق ، فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢) ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٣) ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٤) فلما ظهر منه فى بعض الأوقات النادرة خلافه عاتبه عليه وعرفه أن ذلك غير مرضى منه فيكون ذلك من باب ترك الأولى ثم السبب فى ذلك كما جاء فى الخبر « أنه كان يتكلم مع بعض أشراف قريش ويستميله إلى الإسلام رجاء أن يعز به الإسلام وقد كان من الحرص على إسلامهم بحيث قال الله تعالى :

---

(١) سورة عبس : الآية ٧ .

(٢) سورة القلم : الآية ٣ .

(٣) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٤) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً ﴾ (١) فحضره هذا الأعمى ولم يعرف كيفية الحال ، فسأل عن مسألة فى خلال مكالمة النبى عليه الصلاة والسلام ذلك الرجل ، فاشتد ذلك عليه إذ كان ذلك قطعا للكلام وإفساداً لما كان يحاوله من إسلام ذلك الرجل فأعرض عنه فنهاه الله تعالى عن ذلك ، وأمره بالإقبال على كل من أتاه من شريف ووضيع وغنى وفقير بأن لا يخص بدعوته شريفا دون دنى إذ الواجب عليه هو التبليغ إلى الكل وليس عليه من امتناع من امتنع عن قبول دعوته تبعة ولا عهدة .

الشبهة التاسعة :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ (٢) أى لا تطرد المؤمنين وطردهم كبيرة .

جوابه : ليس فى الظاهر طردهم وإنما فيه النهى عن طردهم بل فيه الدلالة على أنه قال تعالى : ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٣) ولو كان طردهم لقال فطردتهم . وحكمة النهى أن جمعا من الكفار طلبوا منه طرد الفقراء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية لتكون حجة له عليه الصلاة والسلام عن قبول قولهم .

الشبهة العاشرة :

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ (٤) والتوبة لابد أن تكون مسبوقة بذنب .

---

(١) سورة الكهف : الآية ٦ .

(٢)،(٣) سورة الأنعام : الآية ٥٢ .

(٤) سورة التوبة : الآية ١١٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوابه : التوبة – الرجوع – محمولة على الصغيرة أو ترك الأولى .

الشبهة الحادية عشرة :

قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِر لِذَنبِكَ ﴾ (١) وفى الحديث : « وإنى لأستغفر الله فى اليوم والليلة سبعين مرة » وهذا صريح .

جوابه : أنه محمول إما على الصغيرة أو ترك الأولى أو التواضع كما قررناه فى قول آدم : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا ﴾ (٢) أو على التقدير ، والمعنى إذا أذنبت فاستغفره كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ (٣) وليس يريد أن جميعهم مذنبون ، وإنما بعثهم على التوبة إذا أذنبوا .

الشبهة الثانية عشرة :

قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكَ ﴾ (٤) الآية ظاهرها مشعر بأنه فعل ما لايجوز .

جوابه : أن تحريم ما أحل الله ليس بذنب بدليل الطلاق والعتاق ، وأما العتاب فإن النهى عن فعل ذلك لابتغاء مرضاة النساء

---

(١) سورة محمد : الآية ١٩ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٣ .

(٣) سورة التحريم : الآية ٨ .

(٤) سورة التحريم : الآية ١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أو ليكون زجراً لهن عن مطالبته مثل ذلك كما يقول القائل لغيره : لم قبلت أمر فلان واقتديت به وهو دونك ، وآثرت رضاه وهو عبدك ، فليس هذا عتاب ذنب وإنما هو عتاب تشريف .

الشبهة الثالثة عشرة :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللهَ ﴾ (١) ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَاأُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾ (٢) فلو لم يوجد منه فعل المحظور والإخلال بالواجب لم يكن للأمر والنهى فائدة .

جوابه : الأمر والنهى أحد أسباب العصمة فوجودهما لايخل بها .

الشبهة الرابعة عشرة :

قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٣) فلو لم يصح ذلك منه لما خوطب به .

جوابه : من وجوه : **الأول** : أن المراد أمته فقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : « نزل القرآن بإياك أعنى واسمعى ياجارة » ومثله قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ ﴾ (٤) الآية فقوله : ﴿ فَطَلِّقُوهُنَّ ﴾ يدل على أن الخطاب توجه إلى غيره .

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ١ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٦٧ .

(٣) سورة الزمر : الآية ٦٥ .

(٤) سورة الطلاق : الآية ١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الثانى : حمله على الشرك الخفى الذى هو الالتفات إلى غير الله تعالى .

الثالث : أنه شرح الحال بتقدير الوقوع كما فى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (١) .

الشبهة الخامسة عشرة :

قوله تعالى : ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَاتَنْسَىٰ إِلَّا مَاشَاءَ اللهُ ﴾ (٢) والاستثناء يدل على جواز النسيان فى الوحى .

جوابه : أن النسيان يجىء بمعنى الترك قال الله تعالى : ﴿ فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا ﴾ (٣) ﴿ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴾ (٤) فقوله : ﴿ سَنُقْرِؤُكَ فَلَا تَنْسَىٰ ﴾ أى فلا تترك منها شيئاً إلا ماشاء الله وهو المندوب أو المنسوخ .

الشبهة السادسة عشرة:

﴿ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (٥) قالوا فكان النبى ﷺ فى شك مما أوحى الله إليه ، وإلا فأى فائدة فى أمره بالسؤال .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٢٢ .
(٢) سورة الأعلى : الآية ٦ .
(٣) سورة الأعراف : الآية ٥١ .
(٤) سورة طه : الآية ١٢٦ .
(٥) سورة يونس : الآية ٩٤ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جوابه :القضية الشرطية لا تفيد إلا ترتيب الجواب على الشرط فأما أن الشرط حاصل أو لا فهو غير مستفاد فأما الرجوع إلى اليهود والنصارى فلوجهين :

الأول : أن نعت النبى ﷺ كان مندوبا فى كتبهم مذكوراً فى التوراة والإنجيل فكان يظهر بعضهم ذلك وإن كتمه الباقون ، وكان ذلك من أعظم الدلائل على صدقه ، فأمره الله تعالى بالرجوع وتعرف ماشهدت به الكتب السماوية من نعته وصفته ، ليكون أقوى معين له فى إزالة الشبهة وتقوية العلم .

الثانى : أن الله تعالى أمره أن يرجع إليهم فى كيفية ثبوت نبوة سائر الأنبياء ، حتى يزول الوسواس فى كونه نبياً لأنه أمر أن يأتى بمثل ما أتى به من قبله من المعجزات .

جواب آخر : عن أصل الكلام ، وهو أن الخطاب وإن كان متوجها إلى النبى ﷺ يجوز أن لا يكون المراد منه هو .

الشبهة السابعة عشرة :

قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ (١) الآية : قالوا وكان معناه قارب فدل ذلك على أنه عليه السلام قارب الكذب ومال إليه .

جوابه : لعله قارب ذلك بحسب الطبيعة البشرية ، لا بحسب العقل والدين .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٧٣ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فصل آخر

فيما تمسكوا به فى إثبات الذنب لا لنبى معين

الشبهة الأولى :

قوله تعالى : ﴿ وَلَو يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ﴾ (١) فهذا يقتضى ثبوت الظلم لكل الناس والنبى ﷺ من الناس فثبت الظلم له .

جوابه : إذا تمسكت بهذا العموم فى إثبات الظلم فقوله تعالى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) يوجب جواز اللعن عليهم وجل منصب الأنبياء عنه . (فإن قلت) . بتخصيص العموم هناك قلت به هاهنا .

الشبهة الثانية :

قوله تعالى : ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴾ (٣) إلى آخر السورة قالوا : فلولا الخوف من وقوع تخليط الوحى من جهة الأنبياء لم يكن فى الاستظهار بالرصد المرسل معهم فائدة .

جوابه : يجوز أن بعثة الملائكة مع الأنبياء ليس للخوف من تغيير الأنبياء وتبديلهم لكن لمنع الشيطان من إيقاع تخليط فى أداء الرسول ، كما قررناه فى قوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِى أُمْنِيَّتِهِ ﴾ (٤) .

---

(١) سورة النحل : الآية ٦١ .

(٢) سورة هود : الآية ١٨ .

(٣) سورة الجن : الآية ٢٦ .

(٤) سورة الحج : الآية ٥٢ .

الشبهة الثالثة :

تمسكوا بقوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِى آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ﴾ (١) الآية وزعموا أنها نزلت فى نبى عزل عن نبوته .

جوابه : ليس فى الآية مايدل على كون ذلك المذكور نبيا ، والاعتماد فيه على أخبار الآحاد غير جائز ، والله أعلم بالصواب .

* * *

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٧٥ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصادر والمراجع

أولا المصادر .

- القرآن الكريم .
- ابن الأثير ، عز الدين بن محمد الجزرى (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م)
الكامل فى التاريخ . المطبعة الأزهرية المصرية ط ١ ، ١٣٠١ هـ ، طبعة صادر . بيروت ١٩٧٩ .
- الإسنوى ، جمال الدين بن عبد الرحيم بن الحسن (ت ٧٧٢ هـ / ١٣٧١ م) .
طبقات الشافعيه . تحقيق عبد الله الجبورى ، بغداد ، وزارة الأوقاف ط ١ ، ١٩٧١ .
- ابن أبى أصيبعة ، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى (ت ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م) .
عيون الأنباء فى طبقات الأطباء . شرح وتحقيق د. نزار رضا بيروت ، مكتبة الحياة ١٩٦٥ .
- ابن تغرى بردى ، جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكى (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م) .
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، دار الكتب المصرية ط ١ ، ١٩٢٩ م .
- ابن خلكان ، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) .
وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ط القاهرة ، تحقيق إحسان عباس . بيروت . صادر ١٩٧٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- الداوودى ، شمس الدين محمد بن على بن أحمد (ت ٩٤٥ هـ / ١٥٣٩ م) .
طبقات المفسرين . تحقيق د. على محمد عمر . القاهرة . مكتبة وهبة ط ١ ، ١٩٧٢ .
- الذهبى ، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) .
* العبر فى خبر من غبر . تحقيق د. صلاح الدين المنجد . الكويت وزراة الثقافة ١٩٦٠ - ١٩٦٦ .
* سير أعلام النبلاء . الجزء الحادى والعشرون . تحقيق . د . بشار عواد معروف ، د . محيى هلال السرحان قدمته الرسالة . بيروت ط أولى ١٩٨٤ .
* ميزان الاعتدال فى نقد الرجال . تحقيق على محمد البجاوى ط ١ . القاهرة . عيسى الحلبى ١٩٦٣ .
- الرازى ، فخر الدين أبو عبد الله محمد بن عمر (ت ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م) مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير . المطبعة البهية المصرية ط ١٣٠١ هـ .
- سبط ابن الجوزى ، شمس الدين أبو المظفر يوسف بن فزاوغلى التركى (ت ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م) .
مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان . الجزء الثامن . حيدراباد الدكن . مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية ط ١ ، ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .
- السبكى ، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب (ت ٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م) .
طبقات الشافعية الكبرى . تحقيق د. محمود الطناحى ، د. عبد الفتاح الحلو . ط ١ ، عيسى الحلبى ١٩٧١ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- ابن الصابونى ، جمال الدين أبو حامد محمد بن على المحمودى (ت ٦٨٠ هـ / ١٢٨٢ م) .
تكملة إكمال الأكمال فى الأنساب والأسماء والألقاب . تحقيق وتعليق د. مصطفى جواد . بغداد ، المجمع العلمى العراقى . ط ١ ، ١٩٥٧ .
- الصفدى ، صلاح الدين خليل بن أيبك (ت ٧٦٤ هـ / ١٣٦٣ م)
الوافى بالوفيات ، الجزء الرابع ، تحقيق ديدرنج ، دمشق ١٩٥٩ .
- طاش كبرى زادة ، أحمد بن مصطفى (ت ٩٦٨ هـ / ١٥٦١ م) .
مفتاح السعادة ومصباح السيادة فى موضوعات العلوم . تحقيق كامل بكرى ، عبد الوهاب أبى النور . القاهرة ، دار الكتب الحديثه ١٩٦٨ .
- ابن العبرى ، غريغوريوس بن هارون الملطى (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م) .
تاريخ مختصر الدول ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ١٩٥٨ .
- ابن العماد الحنبلى ، أبو الفلاح عبد الحى (ت ١٠٨٩ هـ / ١٦٧٩ م) .
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، بيروت ، المكتب التجارى ، د . ت .
- ابن كثير ، أبو الفدا إسماعيل (ت ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م) .
البداية والنهاية . بيروت ، مكتبه المعارف ١٩٦٦ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

- المنذرى ، زكى الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى (ت ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م) .
التكملة لوفيات النقلة ، ط ٢ . بيروت ، مطبعة الرسالة ١٩٨١ .
- اليافعى ، عفيف الدين أبو محمد عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م) .
مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان بيروت . الأعلمى ، ط ٢ ، ١٩٧٠ .

* * *

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفهرس

الصفحة

مقدمة المراجع : ٣
فخر الدين الرازى – اسمه ولقبه – كنيته – مولده ٣
نشأته وبيئته العلمية ٤
علمه ومجلسه ٥
وفاته ٧
وصيته ٨
شعره ١٢
مؤلفاته ١٤
مقدمة الطبقة السابقة ١٩
خطبة الكتاب ٣٧
فصل فى شرح الأقوال والمذاهب فى أبحاث الكتاب ٣٩
وجوب العصمة للأنبياء وحججها خمسة عشرة ٤١
الحجة الأولى ٤١
الحجة الثانية ٤١
الحجة الثالثة ٤٢
الحجة الرابعة ٤٢
الحجة الخامسة ٤٢
الحجة السادسة ٤٣
الحجة السابعة ٤٣
الحجة الثامنة ٤٣
الحجة التاسعة ٤٥
الحجة العاشرة ٤٥
الحجة الحادية عشرة ٤٥
الحجة الثانية عشرة ٤٦

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحجة الثالثة عشرة ٤٦
الحجة الرابعة عشرة ٤٦
الحجة الخامسة عشرة ٤٧
عصمة الملائكة وهى على أربعة وجوه ٤٧
عصمة آدم عليه السلام ٤٩
الشبهات التى تدور حول العصيان وهى على ستة وجوه والجواب عليها ٥٥
قصة نوح عليه السلام وفيها شبهتان ٥٧
قصة إبراهيم عليه السلام وفيها تسع شبهات ٦١
قصة يعقوب عليه/السلام وفيها خمس شبهات ٨٣
قصة يوسف عليه السلام وفيها أحد عشرة شبهة ٨٥
قصة أيوب عليه السلام وفيها شبهة واحدة ٩٧
قصة شعيب عليه السلام وفيها ثلاث شبهات ٩٩
قصة موسى عليه السلام وفيها ست شبهات ١٠١
قصة موسى والخضر عليهما السلام وفيها ثلاث شبهات لكل ١٠٧
قصة داود عليه السلام وفيها شبهتان ١١١
قصة سليمان عليه السلام وفيها ثلاث شبهات ١٢١
قصة يونس عليه السلام وفيها شبهة واحدة ١٢٩
قصة لوط عليه السلام وفيها شبهة واحدة ١٣١
قصة زكريا عليه السلام وفيها شبهة واحدة ١٣٣
قصة عيسى عليه السلام وفيها شبهتان ١٣٥
قصة سيدنا ومولانا محمد ﷺ وفيها سبع عشرة شبهة ١٣٧
فصل آخر فيما تمسكوا به فى اثبات الذنب لا لنبى معين وفيه
ثلاث شبهات ١٥٩
المصادر والمراجع ١٦١
الفهرس ١٦٥

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رقم الإيداع ٣٨٦١ / ١٩٨٦ م
الترقيم الدولى ٠ – ٠٢٠ – ٥٠٥ – ٩٧٧

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
١٤ ميدان العتبة القاهرة
ت ٩٢٢٦٢٠٩٢٢

Bibliotheca Alexandrina
0395407

الثمن
٢٠٠ قرش